الفصل الأول

فى الصحراء الكبرى الأفريقية

تلقيت رسالة وأنا فى جوف الصحراء تقول «الأب الأبيض The white father سوف يقابلك عند العين الصفرا فى ليلة اكتمال البدر فى الساعة ١,٣٠ آك إما Ack Emma » [1] وكنت مضطراً أن أحافظ على هذا الموعد بالرغم من متاعب الليل فى الصحراء، ذلك لأن الأب الأبيض من أعجب الشخصيات فى هذه الصحراء، ولكن للقصة أصل سابق فى مدينة الجزائر .

فقد اختفى الأب الأبيض هذا وساور اليأس جورج [2] . وأخذ يذرع حجرة نومى فى الفندق ذهابا وجيئة طوال مدة ترقبنا ورود الأخبار ، مردداً عبارات الندم والتأنيب لنفسه قائلا « إننى قتلت الأب الأبيض » وكل ما وقفنا عليه من أنبائه هو أن الأب هارمل Pere Harmel — وهو بعينه الأب الأبيض ترك الابرشية (الكنيسة) التى أعدها لنفسه فى الصحراء ، ليعبر جبال الأطلس على طائرته الخاصة لكى يصل بها إلى مدينة الجزائر وذلك لكى يأخذ بيدنا وينقلنا معه لمسافة نحو ألف ميل فى الصحراء إلى محلة بنى عبس Beni Abbes وهى النقطة الأمامية التى تعسكر فيها الكنيسة الأجنبية the Foreign Legion .

ولقد مضى زمن طويل على الموعد المحدد لوصول طيارته فى حين أن عاصفة هوجاء هبت على جبال الأطلس .

ولقد أطبق الجو الردىء على مطار الجزائر فحبسه دون كل طائرة تريد النزول فى ساحته . ولقد بذل جورج وهو فى أشد الحنق جميع ما فى وسعه من وسائل الاستعلام، من الاتصالات التليفونية بالبلدان وبمحطات الطيران بين جيريفيل Geryville ومدينة الجزائر ومن بعثه بالاستعلامات اللاسلكية إلى المحطات المعدة لتلقيها فى

---

(١) لعلها محرفة من العربية « على القمة » (المعرب) .

(٢) ستأتى قصة جورج فى فصل تال .

الصحراء حتى بريد التتابع « grapevine » وهوالطريقة الغريبة التى يستعملها العرب الرحل للتراسل فيما بينهم بين مضرب وآخر لعدم توفر الوسائل الحديثة لديهم ، ولاريب أن نبأ عن الأب الأبيض كان جديرا بأن يطير بسرعة البرق لأن اهتمام البدو أنفسهم وبدون استثناء بتحركات أو أنباء هذا الرجل لم يكن بأقل من اهتمامنا نحن ، مخافة أن أن يكون اعتراه سوء .

ولكن محنة جورج كانت طبيعية لأن الأب هارمل صديقه الحميم وفوق ذلك فإن الأب الأبيض كان قد وعد بأن يضع طائرته تحت تصرفنا . فإذا حال حائل دون استخدامنا هذه الطائرة لشعرنا بمسئوليتنا عن هلاك رجل من خيرة رجال الصحراء بسببنا .

أما قصة الأب هارمل هذا فهى من الغرابة بمكان . فقد كان والده نساجا فى بلد من بلاد شمالى فرنسا ، أرسله ليتلقى العلوم و يتدرب على مهنته فى كلية برادفورد الصناعية بانجلترا Brdford Technical College . فما أتم دراسته حتى أصبحت لهجته مثل لهجة سكان يورك شير ، وشاب لغته الانجليزية البليلة المشاهدة في عمال صناعة الأصواف .

ثم عاد إلى فرنسا ليؤدى خدمته العسكرية فاختار سلاح الطيران وفاز منه برتبة طيار . ومع ذلك فأنه — ولم يزل فى عنفوان شبابه — أصيب باضطرابات نفسية لأنه لم يشأ أن يعود إلى صناعة النسيج ، وأحس بدافع وجدانى يدفعه لأن يكون قسيسا وأن يقف نفسه لا على خدمة الكنيسة فقط بل على خدمة الإنسانية جمعاء وكان من حقه أن يختار لقب الأب دامين Father Damien وقسيسا راعيا للمبروصين ولكنه نبذ هذه الفرص كلها واختار عليها العزلة فى الصحراء .

فاتصل الشاب ببعثة العذراء Our Lady إلى الصحراء ، ويعرف أعضاء هذه البعثة بلقب « الآباء البيض Pères Blancs » وهى البعثة التى أسسها سنة ١٨٦٨ كبير أساقفة مدينة الجزائر — كاردنيال لا فيجرى Cardinal Lavigerie . على أثر المجاعة التى حدثت فى الصحراء سنة ١٨٦٧ وتخلف عنها عدد كبير من أيتام العرب

فأسست هذه الجمعية لرعايتهم . وأنشئت بسبب ذلك فى جنبات الصحراء مراكز كثيرة لرعايتهم وتعددت هذه المراكز وانتشرت حتى بلغت أفريقيا الوسطى والشرقية، ولقد حفظ لها التاريخ فضلا لم يدركه غيرها وهو محاربة شرور الاسترقاق مما ترتب عليه ذهاب الكثير من أعضائها ضحية قيامهم برسالتهم فى الصحراء . وهكذا هجر هارمل الشاب الحضارة الغربية ورحل إلى أفريقيا الشمالية. وتلقى تدريبه فى هذا المضمار فى الآباء البيض فى تونس؛ وهنا أتيحت له الفرصة أن يتمكن من اللغة العربية وأصبح فى نظر العرب « عالما » A man of Science وليس مفهوم مصطلح « العلم » بين العرب مثل مفهومه لدينا بل إنه مقصور على دراية اللغة العربية والفقه والقرآن الكريم الذى هو كتاب المسلمين المقدس ومصدر شريعتهم الأول . ثم تزيا بزى العرب المكون من « الغندورة » gandoure والثوب الأبيض الفضفاض والبرنس والكوفية والعقال وطرطور أهل البادية . وغطاء الرأس هو الطربوش المصنوع من اللباد الأحمر. وفوق ذلك كله اعتنق حول رقبته المسبحة والصليب . مسبحة تشبه تلك التى يعتنقها «المرابطون » marabots أى نساك المسلمين . وقد أرخى لحيته ولفحت شمس الصحراء وجهه فأكسبته اللون الأسمر وقصارى الوصف إنه أصبح لا يتميز عن أهل البادية الأصليين إلا باعتناقه الصليب ، فعاش بينهم وفى خدمتهم وبشكل معيشتهم. يركب مثلهم الأبل وينتقل مع قوافلهم ويتغذى بنفس طعامهم ويسكن الخيام مثلهم ، والبدوى مغرم بالجدل فنجده يصغى الساعات الطوال لثرثرة الجالسين معه ويرددها كما يردد أحاديث نفسه . ويظهر طبعهم هذا فى التفافهم ليلا حول النار يشعلونها فى خشب الطرفاء (الأثل) وهناك تدور مناقشاتهم مع الأب الأبيض فى المواضيع المتشابهة بين القرآن والإنجيل . وطالت مخالطته لهم على هذه الحال حتى أصبح فى نظرهم أسطورة Legend تكاد تخالط إيمانهم . لأنهم اعتادوا إذا جاعوا أو مرضوا أن يبعثوا برسالة إلى الأب الأبيض فلا يلبث أن يلبى استغاثتهم متجشما فى ذلك قطع مسافة تقتضى أياما على ظهر الجمل — ومجمل وصفه أنه أصبح مقبولا لديهم كأنه فرد منهم ويدرك مقدار هذه الألفة من يعلم مقدار تحفظ المرأة العربية وتحجبها وراء البرقع والقناع ، ومع

ذلك فقد سرى بين نسائهم التنذر برفع كلفتهم مع الأب هارمل فمثلا حدث مرة حين قدومه على محلة عربية أن هرولت النساء على عادتهن إلى داخل البيوت يصرعن الابواب ويحكمن النوافذ ، وإذا بامرأة منهن تصيح قائلة « ارجعن ! إنه ليس برجل ، إنه الأب الأبيض ! »

وأخيرا فى يوم من أيام سنة ١٩٤٢ هبطت قوات الحلفاء [١] فى شمالى أفريقيا، فما كان من الأب هارمل إلا أن نزع زيه الكهنوتى ولحق بسلاح طيران فرنسا الحرة و إذ به ضابطا محاربا [٢] يقود الطائرات النفاثة مع سرب الفرنسيين الأحرار ضمن سلاح الطيران الملكى البريطانى الوافد من شورهام بمقاطعة سسكس Sussex بجنوب بريطانيا وانتهت الحرب وهو يحمل رتبة قائد السرب هارمل . الحائز لوسام صليب الطيران الممتاز ولكنه سرعان ما هجر رفقاءه فى مقصف شورهام المترف كما نبذ رفقاءه الجسورين فى قيادة الطائرات المقاتلة وعاد إلى النقطة المنعزلة فى الصحراء الكبرى الأفريقية ، ولكنه مع ذلك لم يفته أن يأخذ معه طائرة واستخدمها فى تنقلاته فى خدمة أسقفيته (الابرشية) التى تبلغ مساحتها مساحة الجزائر البريطانية بأسرها ، وهنا أتاحت له الفرصة فأسس ناديا للطيران فى جريفيل وأصبح رئيسا لهذا النادى .

وقد كنا نحن فى انتظار طائرته بقلق شديد ، لأن خبراء الطيران فى الجزائر تملكهم التشاؤم على مصير هذه الطائرة الخفيفة لمحاولتها عبور جبال الأطلس وقد حاصرتها العواصف من جميع الجهات ، وأخيراً جاءت الأنباء من جيريفيل بأن الطائرة اضطرت للهبوط على سفح جبال الأطلس من جانب الصحراء الكبرى ، وما زالت فرحة الاطمئنان الذى به هدأت نفس جورج شيفانوفيتش Georges Gvijanovich هذا السلافى المحبوب Slav ماثلة أمام أعيننا جديرة بألا ننساها أبدا .

لكن الموقف بالنسبة لنا باق على ماهو عليه ، نتطلب وسيلة سفر إلى بنى عبس

---

(١) يشير إلى الحرب العالمية الثانية (٢) وفى موقفه هذا عبرة لمن يعتبر . (المعرب)

Beni Abbes فإذا استحال وجود طائرة تحتم علينا استخدام الوسيلة الوحيدة المتيسرة وهى ركوب القطار مدة أربع وعشرين ساعـــة تنتهى بنا إلى كُلُم بشار[1] Calomb Becher ، النهاية الجنوبية لسكة حديد الصحراء .

ثم يبقى علينا أن نقطع ١٤٠ ميلا أخرى يعلم الله وحده كيف سيتاح لنا قطعها فى عباب الصحراء . وانقضى يومان دون أن يقوم قطار ، بيد أنه مهما نفد صبرنا من انتظار الوسيلة للخروج إلى الصحراء لم يكن أمامنا سبيل آخر نسلكه . هذا و إن العواصف التى حالت دون عبور الطائرة غطت جبال الأطلس بالثلج فأصبح من المتعذر اختراق الممرات الجبلية فترة من الزمن ونتج عن ذلك تعذر السفر بالسكة الحديد أيضا ، ومهما يكن من أمر فإن التأخير أتاح لنا أن نلم بشىء عن الأحوال فى مدينة الجزائر ، لاسيما وقد رافقنا فيها على الدوام والاس Wallace ، وقد كان والاس هذا كشفا عظيما لنا ، إذ استطعنا بواسطته أن نسلك تلك الطرق غير اللائقة حول فندق عصرى بالغ حد الوصف فى الطرافـة والجمال . حقا إنها لم تكن لائقة لأنها إزاء الفندق أشبهت فيلا فى مأدبة شاى عصرية ، أما والاس نفسه فكان شخصا ضخم الجسم لا تقل قامته عن ستة أقدام ونصف قدم مع تناسق فى جميع أعضائه ذا كتفين كأنهما كتفا عجل وقد تدثر فى ثوب من صوف الفانلة الغليظ ، أول ماعرفته حين لفت سمعى صوت صادر من أحد الأركان أجش كأنه ورق الصنفرة ذو خشخشة تشبه خشخشة قشور الحبوب أو كأن حنجرته تسرب إليها شىء من الرمل . ثم لفت سمعى منه ضحكته التى أشبهت دوى بركان ، وكان هذا أول لقائى له شخصيا و إن كنت من قبل سمعت سيرته تتردد فى كل مكان فى الصحراء كأنها أسطورة حلوة يرويها الرواة . هذا هو الجيولوجى الوافد من أوكلاهوما Oklahoma أصبح شخصية يردد ذكرها كل فم عربى .

و يشتغل والاس بالتنقيب عن البترول بتكليف من إحدى الشركات ، ولقـد

---

(١) كما تسمى فى خريطة المساحة المصرية .

مضي عليه سنتان ونصف سنة يجوب لهـذا الغرض الصحراء فى جميع أرجائها مع أربعة زملاء آخرين : سويسرى و إيطالى وانجليزى واسكتلندى ، وكانت قافلتهم تتكون من عربتين كبيرتين وثالثة من طراز جيب إذ كان يجب عليهم حيثما انتقلوا أن يأخذوا معهم أدوات التنقيب وآلات الكشف الجيولوجى الحديثة فضلا عما يكفيهم من الطعام والشراب والمخازين خشية أن يحصرهم عائق فجائى فى التجوال . وكان عليهم أن يحملوا معهم حملا ثقيلا من قطع غيار أجزاء السيارات المختلفة لأنهم كانوا يقدرون كسر اثنى عشر تايضاً (زمبلك) على الأقل فى كل شهر.

وقد قص علىّ والاس نفسه حكاية واقعية سمعت القوم فى نقط الصحراء يرددونها مراراً — وهى أن فرقة التنقيب هذه سافرت مرة خمسة أيام بلياليها فى الصحراء دون أن تصادف فى طريقها نسمة من البشر ، إلى أن لمحت أخيراً فى اليوم السادس عربة قادمة من وراء الأفق الذى تتناهى لديه المساحات الشاسعة من القفار كأنها محيط من الرمال الزاخرة ولشـد ما كانت دهشتهم لدرجة أنهم اندفعوا تجاه العربة وارتطموا فيها !

هذا هو والاس ، ولـكن قصته هذه ليست كل شىء عنه ، فانه يحمل فى نفسه شخصية أخرى . و إن رقبته الغليظة تحمل دماغ عالم فاضل وفيلسوف مفكر . ولما كان الإنسان فى الصحراء يجد من الفرص الـكثيرة ما يجعله يفكر و يتفلسف وذلك لأنه حيث لا يوجد سقف يظل الإنسان سوى السماء والنجوم ، وحيث يكون الصمت مطلقاً لا يقطعه صوت إنسان أو غـيره ، يستطيع الإنسان بحق أن يفكر ، وهذا ما حققه والاس فكثيراً ما استطاع أن يحل نظريات ومسائل عديدة فى مثل هذا الهدوء وانتهى من حلها قبيل ظهور تباشير الصباح .

وقد كان لديه متسع من الوقت ليفكر فى أحوال الإنسانية ومستقبلها ، وهو مثل سائر من قابلتهم فى الصحراء يتعشقون المعيشة فيها ، حتى كان يتفطر أسفاً لقرب رحيله عنها والـكف عن محاولات البحث عن البترول التى لم يلمح لها نهاية و بالرغم

منه سوف يغادر الصحراء ليعمل فى الغابات الاستوائية بأفريقيا . و إنه مثل الكثيرين من قابلتهم فى الصحراء ، يعتقدون إنه فى الإمكان استصلاح الصحراء لكى تصبح ممنتجة وأن يكون فيها انقاذ الجنس البشرى من المجاعة والهلاك .

وقد أخذنا والاس معه إلى القصبة Kasbah ، ومعناها فى الأصل[1] القلعة ، ونسكنها فى مدينة الجزائر وفى غيرها من مدن شمالى أفريقيا ذات الصبغة الأوربية يقصد بها الحى العربى ، و إن يكن هذا الحى على مدى بضعة أمتار من الحى الأوربى ذى الشوارع ذات الحوانيت الملأى بحاجيات السكان لكن القادم عليه سرعان ما ينغمس فى عالم مشئوم مغاير كل المغايرة للجانب الآخر من المدنية ، عالم خارج على القانون أو على الأقل لا قانون له سوى ما يضعه لنفسه من قواعد . ومقتضى ذلك أن حياة الإنسان لا ثمن لها فى القصبة .

وتقوم قصبة مدينة الجزائر على جبل شديد الانحدار ، مشرفة على الميناء التى لبثت الأحقاب الطوال مأوى القرصان من البرابرة مأوى يعز على من يطلبه ، وكذلك لجوابى البحار ومعظمهم مسيحيون ، يحميهم البكوات المسلمون ، يعتقلون السفن ماخرة البحر الأبيض المتوسط ولا يخلون سبيلها حتى يفتديها أصحابها بالمال. أما الشوارع فهى ممرات مدرجة تشبه السلالم أو السراديب المظلمة تذهب صعداً فوق سفح الجبل وعلى ضفتيها حجر مظلمة شبيهه بالمقابر ينبعث فيها ضوء ضئيل صادر من مواقد الفحم أو من مسارج توقد بزيت الزيتون وأحياناً بمصابيح الاستيلين المتوهجة رمز ثراء أصحابها . ولعل بعض الأفلام مثل فلم Pepe Moko تعطى مشاهديها فكرة عن هذه المعميات الخطيره التى هى محنة القصبة ، أما الحقيقة كاملة فلا تستطيع تصويرها أبرع أفلام هوليوود نفسها . لذلك . فإن كل إنسان يقدم على دخول القصبة لا يلومن إلا نفسه إن أصابه سوء ، إذ أنه لا يجد فيها من يغيثه من رجال الشرطة إذا شعر بما يهدده . ولم تستطع قوى الحلفاء مجتمعة أن تحمى عساكرها أو ملاحيها إذا طاش المسير بأحدهم فتعدى حدود الأمان Out of bounds . فإن سكين المجرم

---

(١) معناها اللغوى عاصمة الأقليم ومن لوازمها القلعة لحماية الحاكم (المعرب)

ماضية وخفية وأهل القرية لا يكشفون سرها قط . وحول الجامع الكبير فى القصبة حرم من دخله كان آمناً على نفسه مهما يكن جرمه لكنه حالما يجرؤ على مغادرة هذا الحرم يقع تحت طائلة القانون الفرنسى الصارم ، وكان من أثر ذلك أن أشخاصاً خارجين على القانون — لذلك لا يحميهم القانون — لبثوا آمنين فى داخل منطقة الأمان . هذه يتعاطون أعمالهم و يؤثلون بضاعتهم ، لايخشون تعقب رجال الشرطة لهم ، لأن هؤلاء وقفوا عليهم من زمن بعيد ، ولكن الشرطي فى دوريته خارج هذه المنطقة يرى الواحد من أولئك المجرمين فى داخلها ولكنه عاجز عن مناوشته .

وتنقسم القصبة إلى أحياء يتوسطها الأسواق ، التى اختص كل منها بنوع من السلع لا يباع فى غيرها . فهذا سوق الأطعمة وذلك سوق الملابس والثالث سوق الحدائد الخ . وتمت شارع النحاسين تتردد فى جنباته الأصوات المنبعثة من ضرب المطارق لتشكل آنية القهوة والشاى والأطباق ومواقد الفحم الخ ثم شارع الخياطين انكبوا يخيطون السراويل الشبيهة بالبنطلونات المنتفخة يلبسها الرجال والنساء على السواء ، ولهم الحق فى اتخاذها لأن الثوب الفضفاض يسمح للهواء بالوصول إلى الجسم فينتفش صيفا ، و يمكن لابسه أن يتدثر به فيدفأ فى ليالى الشتاء القارسة ، ومن هؤلاء يمكنك أن تشترى البرنس « الذى هو ثوب من نسيج ثقيل من و بر الجمل أو شعر المعيز ذو طرطور يقى رأس لابسه من عصف الرياح وقرس البرد . فالعربى يفرشه ليقيه التراب و يستعمله عباءة لذلك هو صالح لكل الاستعمالات كالمعطف أو يتخذ منه وسادة وقد يجعل منه خيمة تؤوى فى الصحراء الشخص الواحد المقرفص . وليس له أكمام إنما هما فتحتان تنفذ منهما الذراعان وكثيراً ما يزينونه بزخارف مصنوعة باليد أساس تركيبها فى الغالب نجمة يرمز بها لنجم الصليب الجنوبى [1] the Southern Cross وهو فى الأصل من وضع عرب جنوب الصحراء الطوارق [2]

---

(١) نجم الصليب الجنوبى أو Southern Cross هو مجموعة نجوم فى شكل صليب قريبة من القطب الجنوبى يتميز بها كما يتميز القطب الشمالى « فى نهاية الدب الأصغر » وكل منهما لا يرى إلا فى نصف الكرة الموجود فيه . (المعرب)

(٢) الطوارق Touregs جمع مفرده « طارق »

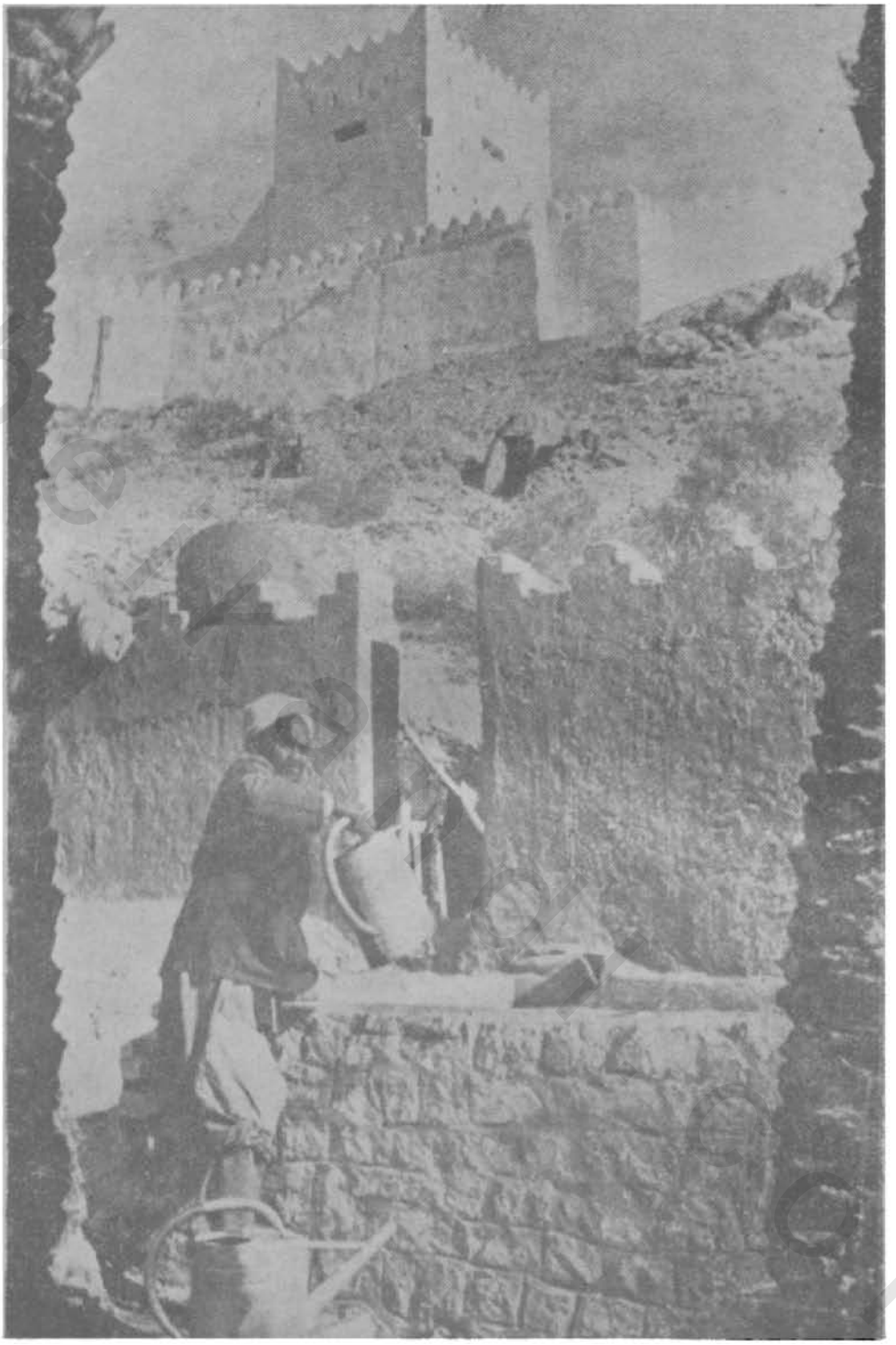

قلعة بنى عبس

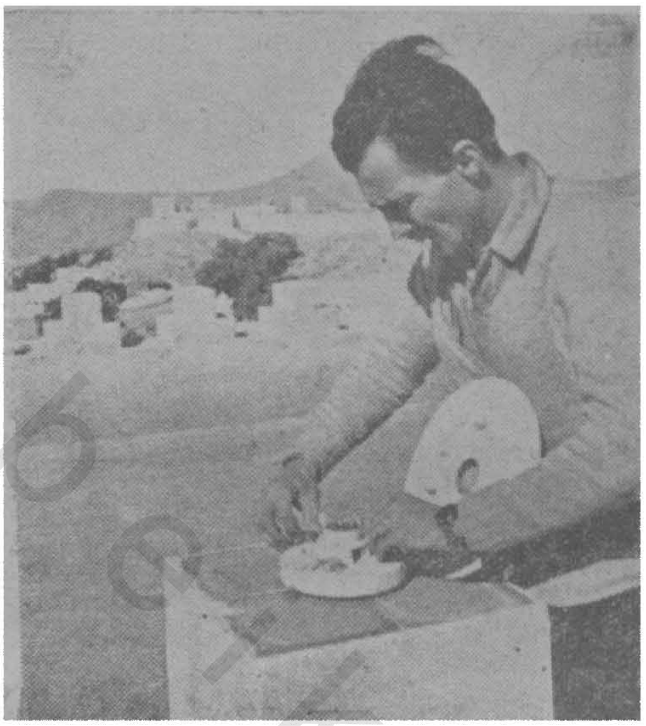

جورج « رحل جديد من رجال الكتيبة الأجنبية » . فيجا نوفتش Cvijanovich لاجئية له ، اختير لأبحاث الصحراء فى القلعة الصحراوية

الأب الأبيض « الأب هارمل La Pere Harmel »
قائد سرب وهو عضو فى إرسالية دينية لا يتميز عن شكل مسلمى البادية فى شىء عدا أنه يعتنق « صليبا » .

Tousregs وهم جنس غريب لا ينتمى إلى الساميين مثـل سائر العرب أو اليهود ولا إلى الحاميين مثل زنوج أفريقيا ولعلهم ينتمون إلى جنس أقدم من هؤلاء وأولئك مثل البسكيين Basdues حتى دينهم وهو الإسلام ، لهم فيه مذهب تقليدى خاص بهم . ومن خصالهم أن الرجل يتحجب بالبرقع والمرأة تتنقل سافرة [1] فى حين أن العربى يحتم على زوجته التحجب — فلا ينكشف من نساء مدينة الجزائر إلا أعينهن . والمتبع بين المسـلمين هو أن المرأة معدومة الحقوق [2] فهى قطعة من أثاث المنزل .

ومن الأدلة المشاهدة على ذلك أن إحدى مصاعب القيام بإحصاء دقيق لسكان البادية تمنع البدوى أن يخبر بشىء عن زوجته لأنه يعتبرها لا تستحق الذكر بوصفها شخصاً من الأشخاص . لكن المرأة عند الطوارق هى التى تختار زوجها وتتمتع فى الأسرة بنفوذ الأم الحقيقى .

والزى الشائع بين الأعراب هو الغندورة ، ويشاهدها الرحالة أينما سار فى شمالى أفريقيا والشرق الأوسط وإن اختلفت أسماؤها فى البلدان المختلفة ، وهى ثوب يشبه القميص الطويل يدانى الكعبين ويلبسه الرجال والنساء على السواء ، وهو عادة أبيض اللون فى الصحراء ، وزاهى الألوان فى غيرها ، ويلبس النساء فى القصبة شكلا من الثياب نستطيع أن نشبهه (بمريلة) مقلوبة من أعلى إلى أسفل . تعلقها المرأة فى وسط ظهرها ثم تجمعها فوق رأسها ووجهها لتؤدى وظيفة الشال والبرقع فتحجب قسمات وجهها حجباً تاماً [3] .

وزيارة القصبة حتى فى وضح النهار لا تخلو من المخاطرة ومع ذلك هى ملأى بالمشاهد المتعددة اللافتة للأنظار ، إذ يضطر المتجول فى طرقات القصبة أن يشق

---

(٢) وصف هؤلاء القوم يتفق مع وصف ابن بطوطة لقبيلة من سودان الصحراء عاشت فى زمن رحلته فلعلهم من خلفائهم فيها (ص ٣٠٨ ج ٢) « المعرب »

(٢) هذا خلاف الحقيقة المشهورة عن حقوق المرأة فى الاسلام والتى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة « المعرب »

(٣) هذا الوصف يشبه ما كان يشاهد فى بعض مدن مصر إلى أوائل القرن العشرين وكان يسمى « الحبرة » « المعرب » .

طريقه بين الجموع المحتشدة من كل جنس من بدو وبربر ومراكشيين ويهود وألوان مختلفة من أشباه الزنوج لأن الرواد من جميع أصقاع شمالى أفريقيا يفدون إلى القصبة فيزيدونها اكتظاظاً على اكتظاظها الذى لم يعمل عنه إحصاء قط . فترى مجتمعاً فيها الثراء والفقر يتدافعان بالمناكب بدون تدبر ولا تمييز .

فقد تشهد حاجاً ثرياً لابساً عمامته الصفراء أو الذهبية تدلك على أنه أدى فريضة الحج إلى مكة (المكرمة) وتراه يوزع الصدقات على الشحاذين الذين لايحصيهم العد والذين ينبثون بين هذه الجموع حاسرين عن عاهاتهم أو أعضائهم المبتورة . وعدا العمامة من أغطية الرأس يلبس بعضهم الطربوش وهو لايعدو أن يشبه أصيصاً أو زهرية مصنوعة من اللباد الأحمر ومقلوبة فوق قمة الرأس ثم الكوفية وهى لباس الأعراب الرحل فى بلاد المشرق وهى رقعة من النسيج الأبيض تثبت فوق الرأس بالعقال وهو حبال من خيوط الذهب أو الفضة أو القطن الأسود تثنى وتحزم حول الرأس .

وقد خطر لى خاطر عند مشاهدتى هذه الثياب الشرقية وهو الدليل على ما تدين به الحضارات الغربية إلى الأمم الشرقية فقد نبهتنى ملابسهم إلى أن كثيرا من أعمالنا الأكاديمية ومراسيمنا الدينية وفدت إلينا من بلاد المشرق وهذا هو الواقع إذ أن فى هذه المناطق وتحت القبة الزرقاء صافية الأديم متلألئة النجوم استطاع رجال منذ آلاف السنين أن يفكروا طويلا فى اللانهائى حتى اهتدوا إلى حقائق وفلسفات . فهذا مثلا البرانس ليس فقط أصلا لمسوح الراهب وقلنسوته وطيلسان القسيس بل هو أيضاً أصل للأردية الجامعية ، أما الغندورة فهى ثوب القسيس الفضفاض ، والطربوش الذى يخيل إلى أنه فى الأصل عمامة مجهزة من قبل Prefabricated قد أعطانا صورة القبعات من أنواع المتر والبيرية والمورتار بورد (قلنسوة التلاميذ والطلبة) — تشبيهاً لها بوعاء الملاط (قصرية المونة) »

فإذا ما ابتعدنا شرقاً إلى ليبيا وجدنا القوم بدورهم استعاروا من الأغريق

والرومان ، فما أردية أعراب البادية الغربية فى الأصل إلا الثوجا toga الرومانية ، حقاً أنهم ما زالوا يسمون المشابك التى تجمعها فوق الكتف « مشبك التوجا » «the toga pin»

وليست القصبة في الليل مخاطرة فقط ، بل إنها هلاك محقق لذلك ان يجرؤ على طرق أبوابها أحد إلا مع حارس مثل والاس ، ولم يكن ذلك بفضل ضخامة جثته التى يصفها هو نفسه فيقول « لن يكفى مهاجمى أن يستعمل سكينا بل لا بد له من استعمال حربته أو رمح » بل إن الفضل فى ذلك يرجع إلى شخصيته المعروفة كل المعرفة لعامة الناس والمحبوبة لديهم جميعاً ، فكان لى منه الضمان لسلامتى حتى فى أشد المآزق حرجاً وريبة ، فلا يكاد يتصدر فى المنعطفات الضيقة ، حتى تتفتح لنا الأبواب المغلقة التى ما كانت لتحمينا فيها الأسلحة المتنوعة .

حقاً إنه كلما صادفنا مشاجرة أو ضجة أمام دار من دورهم سرعان ما طويت السكاكين فى أغمادها واختفت الخناجر بمجرد مايلمح القوم صاحبنا والاس ، وما هو إلا أمر غليظ يصيح به فى وجوههم حتى يتبدد جمعهم ، وفى هذا إنقاذ حياتنا وضمان عودتنا إلى الفندق سالمين .

وأخيرا غادر القطار مدينة الجزائر فى الساعة ٨ والدقيقة ١٤ صباحاً وكان من نوع الديزل الكهربائى ذا (دواوين) مريحة وفيه عربة لتناول الطعام قاصدا مدينة وهران التى لم تكن وجهتنا لذلك غادرناها عند قرية بيرجو وهى بلدة تنتج البرتقال واقعة فى أقليم مدينة الجزائر فى أسفل جبال الأطلس الذى يكاد يكون قاحلا ومع ذلك تنمو فيها أشجار الموالح وتسقى بالرى المنتظم ، وعندها كان يجب علينا أن نتحول إلى قطار الصحراء فنزلنا القرية وابتعنا خبزا وماء وفاكهة و بيضاً مسلوقاً صلباً وغير ذلك مما كان يلزم فى رحلتنا الجبلية الطويلة إلى بلدة كُلُم بشار ، وقطار الصحراء هذا يجرى بالبخار وأكثر عرباته ذات مقاعد خشبية لكننا أجلسنا على مقاعد منجدة ومريحة .

وكان يجاورنا فى الديوان الملاصق « قائد » وهو من عمد الصحراء يرافقه ولداه

راجعين إلى مضرب خيامهم و إبلهم و بدت عليه مظاهر الثراء فى ثيابه الغالية وعمامته المحلاة بخيوط الذهب وكان يدخن السجاير فى مبسم طويل مصنوع من الفضة وقد حمل خدمهم حقائب الملابس الكبيرة الأنيقة وجهزوا قريباً من أقدامهم موقدا يشعل بالفحم ليقيهم برد جبال الأطلس القارس فى الليل . وجرى القطار مسافات طويلة محاذياً للطريق كأنه عربات ترام ثم أخذ يتسلق الممرات العلوية فى الجبال المغطاة بالثلوج فاخترقنا العاصفة الثلجية المظلمة وعبرنا هضبة مرتفعة قبل أن ينحدر بنا القطار إلى سفح الجبال الهابط الى حدود الصحراء ، وفى أثناء سهرنا نترقب ما نصادفه من مناظر وحوادث قص على جورج قصته : فهمت منه أن اسمه جورج فيجانوفتش وهو شاب يوغسلافى مطرود من وطنه يحمل جواز سفر لاجىء طوله نحو ياردة ، وليس مقصورا على الحصول على تأشيرة دخول البلد والخروج منه بل يتطلب الإذن بالإقامة والتنقل فى البلد التى يصرح له بالدخول فيها ، وقد كان « واحدا من رجلين » هما أول من قابلت من « رجال ذللوا الصحارى » قابلته فى باريس فى مطعم بحى شانزيلزى وكان معه الأستاذ مينشيكوف Prof. Menchikoff الروسى مولدا وهو مؤسس مركز بحوث الصحراء فى بنى عبس Beni abbes وما زال مديرا له ، وكانت هذه البلدة هى وجهتنا فى هذه المرحلة من الرحلة . وقد درست معه برنامج هذا الجزء من رحلتى ونحن جلوس على المائدة يوما ما فى باريس . أما هو فقد عرج على باريس ليشترى بعض الأدوات العلمية اللازمة لعمله بوصفه خبير طبقات الأرض فى الصحراء وقد تفضل بأن يكون رائدنا فى الرحلة ، و بعد أن أكمل عدته نقلها معه إلى مدينة الجزائر على ظهر الباخرة ، وهناك التقينا معه للمرة الثانية .

أما قصته فهى مأساة عصرنا بل ستبقى مأساة العصور إذ أنه كان طالب علم فى مدينة بلغراد حينما احتل الألمان يوغوسلافيا ، فما كان منه — مثل الكثيرين من زملائه — إلا أن فر إلى الغابات لينضم إلى جيش المقاومة ، ولكنه وهو ذو القلب الرحيم تمرد على وحشية الإنسان وقسوته على أخيه الإنسان حين أمروه بإعدام أحد أصدقائه وطفليه وزوجته الحامل ، فأبى تنفيذ هذا الأمر الوحشى وفر بنفسه إلى فينا ثم

إلى براج ، وهناك دبر طريقة ما ، استطاع بها أن يواصل دراسته طالب علوم. حتى بعد انتهاء الحرب لم يستطع العودة إلى وطنه اليوغوسلافى لأن والده كان قد اتهم بتحيز لفريق من رجال المقاومة ضد فريق آخر وحكم عليه بالإعدام ، فبدلا من العودة إلى وطنه سافر إلى باريس ، وهناك أدركته والدته وأخوان صغيران ، لكنه كان خالى الوفاض فاضطر أن يعمل سائق سيارة بالأجرة (تاكسى) وغير هذا من الأعمال لا ليكسب عيشه هو وأسرته فقط بل ليواصل دراسته حتى حصل على درجة علمية من جامعة السربون ، ومع ذلك فانه لعدم انتمائه إلى جنسية سياسية عز عليه أن يجد عملا مناسبا لدرجته العلمية إلى أن صادف يوما ما بروفسر منشيكوف فى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية فى باريس فعينه هذا الأستاذ فى وظيفة معه فى أبحاث الصحارى وهناك أغرم جورج بالصحراء غراما جنونيا وصار يتغنى بمحاسنها حتى كاد يوقعنى أنا فى حبالة غرامها — ولعله محق فى ذلك — وقد خطب فى أثناء رحلته الأخيرة إلى باريس فتاة سويسرية كانت تستعد لأن تدركه فى الصحراء ليعقد زواجهما على يد « الكابتن » قائد قلعة بنى عبس — وبقى الزوجان فى هذه الجهة إلى الآن - ثم وقف القطار فى الساعة الثامنة صباحا عند قرية كُلُم بشار وهى نهاية سكة حديد الصحراء فى هذه المنطقة . وكلم بشار هذه هى مركز القيادة العامة العسكرية لمنطقة الصحراء، وهى منطقة تزيد مساحتها زيادة كبيرة عن مساحة فرنسا نفسها ، ومن ورائها ليس سوى فضاء الصحراء المطلق فيشعر الإنسان عندها بمعنى البلد الواقعة على الحدود ، ومنها تتفرع جميع الطرق لداخل الصحراء الكبرى ، وفيها مخازن الجيوش والمطار الذى تطير منه دوريات الجند لتحرس الصحراء بعيون ساهرة على الدوام وفيها أيضا مركز الإدارة المشرفة على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى الصحراء والتى يرأسها الآن كولونيل كينارد Colonel Kuenard .

وقد كنت مخطئا فى التفكير بشىء من الخطأ — فيما عسى أن يكون حديثى مع الكولونيل عندما أتقدم إليه ، ولم أكن مطمئنا لما سوف يلقانى به مثل هذا القائد ذى الخوذة العسكرية من عطف وتقدير لمهمتى لديهم ، ولكن التجربة أخلفت كل

ظنونى وبددت مخاوفى ، فعندما قدمت أوراق اعتمادى إلى نقطة الاستقبال فى القيادة تلقانى الكولونيل نفسه فى حجرة يصح أن تكون حجرة رسم الخطط للعمليات الحربية ، إذ غطيت جدرانها بخرائط للصحراء بمقاييس رسم كبيرة ، من النوع الذى يعرض عليه القادة جندهم للعمليات ، وقد كان الكولونيل مديد القامة على وجهه سمات العزم والقوة ، ومع ذلك فحينما فاتحته فى موضوع استصلاح الصحراء تلألأ وجهه بالبشر والحماسة وخطا خطى واسعة فى قوة إلى الخريطة المعلقة على الجدار وأخذ يشرح لى رأيه فى الموضوع — ليس من جهة التحركات العسكرية — ولكن من جهة الإصلاح الزراعى ، وإعداد الصحراء للزراعة المنتظمة ، ولقد كنت أتوقع صعوبات ليست من النوع الذى ووجهت به الآن ، فان جميع الترتيبات التى أعددتها للرحلة لغاية بلاد فارس ظهر أنها ضيقة جدا وفى حاجة إلى مرونة كثيرة .

فقد أشار على بأن أطلع على أشياء كثيرة لا يتسع لها الوقت المرسوم للرحلة ولما وفقته أمر أركان حربه أن يضع إحدى عربات القيادة تحت تصرفنا ، ورسم لى الطرق التى نسلكها وطير الإشارات إلى جميع النقط التى كان مقرراً أن نزورها ، وحينما ظن حاجتنا إلى حراسة عسكرية أمر بتزويدنا بالقوة اللازمة لهذه الحراسة ، والواقع أننا لم نكن فى غناء عن هذا الاحتياط الضرورى و بعد بضع ساعات كنا فى أعماق الصحراء .

وقد كانت عربة القيادة المعطاة لنا من الطراز القوى المريح الخاص بالصحراء يعلوها غطاء كبير (كبود) ولكنها بالرغم من ذلك معرضة للتقلبات كما ظهر لنا فى أثناء رحلتنا ، فأول تجربة دلتنا على أننا لم نكن قائمين بنزهة صحراوية هى التى حدثت لنا بعد نحو العشرين ميلا من كُلُم بشار حينما جنحنا عن الطرق المعلمة فى الصحراء وملنا إلى قلعة صحراوية بيضاء مربعة الشكل تحرسها قوة من رجال الجيش الوطنى المعروفين بالزواف Zouaves

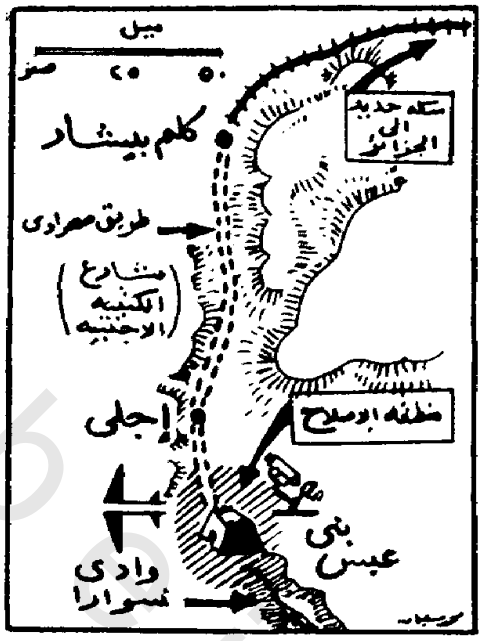

وكانت تعليمات الكولونيل تقضى بأن نرسل التقارير عن رحلتنا من هذه النقطة لكى يمكنهم أن يبعثوا بالأوامر على طول الطريق من النقطة إلى التى تليها لكى يترقبوا وصولنا اليهم ،وقد كان هذا الاحتياط حكيما خشية أن تصادفنا عقبات فى الطريق ولم نكد نسير أميالا قليلة حتى وصلنا إلى مضيق وهو ممر حرج فى الجبل بعد قلعة مينورار Menouarar وكان هذا مثالا من العقبات التى كانت متوقعة ، حيث أقيم هنا تذكار للجنرال كلافرى Ceneral clavery وجنوده التابعة لجيش الصحراء الذين ماتوا أمجاداً بيد الأعداء فى اليوم الثامن من ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، حينما وقعوا فى كمين من عصابة اشتهرت باسم الرزو rezzow هبطت عليهم من جبال مراكش التى كانت على يميننا فى هذه الرحلة ، وعلى قرب كثير منا يهددنا بالخطر — ليغيروا على القوافل و يختطفوا الرقيق ، لكن هذه الحال مضت من زمن بعيد أما الآن فان الحدود التى لم تميز تمييزاً ظاهراً بين مراكش والجزائر لم تعد مهددة بمثل هؤلاء المغيرين من قطاع الطرق لأنهم على الدوام تحت المراقبة الدقيقة التى يقوم بها سلاح الطيران .

ومع ذلك فإن جورج يقول بأن عصابة رزو هذه كانت جديره بأن تجعل رحلتنا غير ضرورية وأن جنرال كلافرى خرج من بنى عبس Beni Abbss فى ذلك اليوم من سنة ١٩٢٨ وكان مقرراً أن يصحبه فى رحلته أحد الخبراء بطبقات الأرض ليقوم بمعاينة بعض أجزاء الصحراء ، ذلك هو مينشيكوف نفسه الذى فر إلى شمالى أفريقيا مع الأسطول الروسى فى البحر الأسود وعلى مر الزمن أصبح خبير طبقات الأرض فى الصحراء ولكن شاءت المقادير أن يرجع فى آخر لحظة من مصاحبته للجنرال كلافرى الذى قتل هو وجميع رجاله ، ولو أن مينشيكوف كان معهم لقتل ولما كان هناك مركز

لأبحاث الصحراء فى بنى عبس ، لأنه هو الذى أنشأ المركز وقد دأب منذ إنشائه إلى الآن أن يزوده من حين إلى حين بفريق من العلماء المجهزين بالآلات والعدد اللازمة لأبحاثهم ولدرسهم الكثير من شئون المناطق الصحراوية .

ومن ذلك الحين أوشكت جميع أحلامى عن الصحراء تتبدد وذلك لأمر واحد وهو أن الصحراء الكبرى حتى فى منتصف النهار يكون فيها البرد شديدا ، وأن الريح القارس الذى كان يهب على عربة القيادة التى اتخذناها كاد يجمد منها نخاع عظامنا ، إذاً لم تكن الصحراء كما كنا نتصورها لا تعدو أن تكون بحرا خضما من الرمال بل هى تارة جبال وعرة جرداء ، وتارة وهاد سحيقة ، وتارة هضاب مترامية من الصخور السوداء ، وأخرى سهول فسيحة من الحصباء والحصى الصوانى ، فنحن الآن فى صحراء الحمادة Hammada كما يسمونها أو الصحراء الصخرية ، أما إذا سلكنا الصحراء الرملية ، فكنا نسمع الرمال تتحطم وتنسحق تحت عجلات العربة وتحت أقدامنا لأنها من شدة حرارة الشمس أصبحت قشرة هشة تعلوها طبقة زجاجية من الرمال المنصهرة ، حتى الصخور ذاتها علتها طبقة سوداء لامعة كأنها الميناء من تأثير الحرارة الشديدة ؛ وطريقنا هذا يسمونه « بولفار الكتيبة الأجنبية » Boulevard of the Foreign Legion — وإثباتا لذلك أقيم عمود فى فضاء الصحراء الشاسعة كتب عليه أن هذا البولفار أقامه رجال الكتيبة الأجنبية ، والحق أن تسمية « بولفار » ما هى إلا مزحة مازح فكه . هذا هو الطريق الذى خطته فى بادىء الأمر أخفاف الأبل ثم سلكته من بعدها أحذية الرجال المنهوكة من كثرة المشى ، وأخيرا طرقته عجلات السيارات الصحراوية الضخمة وعجلات السيارات الحربية مثل تلك التى كنا مسافرين عليها والتى لبثت تلتوى وتلتف فى الممرات الضيقة ثم تنطلق فى عباب المسافات الشاسعة ، حتى أن حركاتها هذه جعلت الرحلة توهن العظام .

وبعد ذلك هبط البولفار فجأة إلى حافة الوهدة من الجانب الآخر حيث أقيمت قلعة بنى عبس على سفح تلال رملية مرتفعة .

وهنا صاح جورج مشيرا إلى ما يصح أن يكون قلعة ناشئة على سفح مقابل لم يتم

تموها بعد وقال : انظر ، انظر « ذلك هو معمل مركز البحوث الصحراوية » .

ذلك هو المعمل الذى منانى بمشاهدته حين كنا فى إحـدى مقاهى باريس بحى شانز ليزى وحين كنا نعبر ثلوج جبال الأطلس ونشق العاصفة الثلجية فوق الهضبة المرتفعة ثم فى المغارات التى فصلتنا عن كلم بشار .

وهكذا كانت عودة جورج إلى وطنه . وما كاد يقع بصرى على تلك المبانى البيضاء المنعكسة عليها أضـــواء الشمس المغربة حتى بدأت أفهم سر غرام جورج بالصحراء ،فإنها فى الحق كانت تستحق المشاق التى تحملناها فى سبيلها والمتاعب التى عانيناها فى قطع نحو ألف ميل فيما بين مدينة الجزائر وبينها (.. . وهى مسافة تساوى ٤٠ مرحلة يومية على ظهور الإبل) .

و إذ هبطنا أسفل الوادى الحاد الانحدار ، صار الجبل خلفنا فقطع عنا بقية أضواء الشمس ومع ذلك فاننا ما زلنا تحت سماء صحو أخذ القمر يتأرجح فيه على ظهره .

وقد اخترق الوادى عويد سوارا Clued Souara ، وكلمة « عويد » فى أفريقيا الشمالية الفرنسية يعنون بها « الوادى » وهو عند معظمهم الأنهار المتقطعة ، أى أنها تتدفق مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أكثر فى فصل الأمطار ، أما فى باقى السنة فهى قنوات جافة . ولـكن « واحات العقرب ببنى عبس Scorpion Oasis of Beni Abbles » فقد ظهرت حتى فى أضواء المساء الضئيلة ذات مناظر بديعة . ولقد سموها « واحات العقرب » لا لأنها مباءة هذه الهوام الخبيثة بل لأن شكلها وقد امتد ذيلها فوق الوادى شبيه بهذه الحشرة . وصادف وصولنا قدوم قافـلة من الصحراء الغربية الـكبرى . وعندما توغلنا فى جوف الواحة كانت إبل القافلة تستعد لقضاء ليلتها فى وسط القرية وبين رغاء الإبل وضجيجها عند إناختها كان العرب يعدون مواقدهم من غاب المكانس وصوت المؤذن يجلجل لينادى المسلمين للصلاة مرددا شهادة « لا إله إلا الله » والهواء يحمل هذا النداء و يردده فى جنبات الوادى .

أما نحن فقد تسلقنا السفح القائم على الجانب الآخر من الوادى حيث كانت تقوم قلعة بنى عبس الـكبرى .

وقد كان كابتن زيمون كلاريس Cotaine Rpoymomd Clarisse قائد قلعة بنى عبس شابا ممتلئا حيوية ونشاطا هو وزوجته الفرنسية الحسناء فى انتظارنا فى غبشة المساء أمام بوابة القلعة ، التى قام على كلا جانبيها الحرس المقترعين من قبيلة الرجيبات Regibats وهم عرب موريتانيا الرحل Mauretania ذوو الأشباح الرهيبة وقد لبسوا حللهم الزرقاء بين داكنة وزاهية وعلى رءوسهم العمائم الضخمة الزرقاء أيضا. والغريب عنهم يظنهم أناسا ودودين ظرفاء ولكنهم قد اشتهر عنهم ما اشتهر عن عساكر الجرخا بالجيش البريطانى Guurkas أولئك الجند المطيعون لقائدهم طاعة عمياء والذين لا تأخذهم هوادة ولا رحمة فى تنفيذ أوامره ، فما هى إلا لفتة يسيرة من الكابتن إليهم حتى كان يمكنهم أن يقطعوا رقابنا بدون ترو ولا تردد ، وإن شهرتهم جعلت الخارجين على القوانين يرهبونهم أشد الرهبة كما جعلتهم الحراس الأمناء لكل رئيس فى نقطة منعزلة عن العمران مثل نقطة بنى عبس . وقد لبس كابتن كلاريس وزوجته كلاهما البرنس ومن فوقه الطرطور الذى وقى آذانهم من برد الليل القارس وما أظهراه لنا من كرم الضيافة جعلنا وإياهم مثل قدامى الأصدقاء أى مثل جورج نفسه . فما كدنا نصل إلى داخل القلعة حتى ذهبت عنا رهبة الصورة العسكرية ، وقد كانت القلعة مبنى ضخما يتسع لإيواء كتيبة كاملة فى حين أنها الآن لا ينزل فيها إلا صف واحد من الجند «Platoon» وإنها الآن وقد صارت آمنة من غارات المراكشيين الذين يهبطون من الجبال فى طلب الرقيق ، أصبحت المركز الرئيسى للادارة المدنية فى منطقة فى حجم يوغوسلافيا ، وسكانها لا يزيدون على العشرين ألفا يتضورون جوعا ، وقد أخذنى كابتن كلاريس بنفسه إلى غرفتى الضيقة والأقرب للصواب أن أسميها «صومعة» واقعة فى جناح الضباط ، أطلت منها فتحات الدفاع بمثابة شرفة استشرف منها على ما حولها من مناظر وكان أثاثها بالقدر الضرورى وأنيرت بمصابيح زيتية .

وقد دعانا الكابتن للغذاء على مائدته ، وقد لبست زوجته حلة باريسية كما قدمت إلينا أيضا ألوانا من الطعام باريسية . وما انتهينا من تناول الطعام حتى انتقلنا إلى العمل وكنت عرفت من قبل كابتن كلاريس فى مدينة الجزائر فى فلم سينمائى عنوانه « فرقة

الجند البيضاء» The White Squadron وهو حكاية عن فرقة الهجانة Camel Corps التى لعبت دوراً فى تاريخ الصحراء حين خرج رجال هذه الفرقة بقيادة ضباط بيض ليقطعوا الطريق على عصابة الرزو rezzow التى أغارت على السودان الفرنسى واصطدموا بهم فعلا فى التلال الرملية الشاسعة فى جنوبى بنى عبس . وهنا ظهر لى الكابتن فى صورة الرئيس الإدارى الذى تتجمع فى شخصه سلطات الحكومة المسيطرة على هذا الإقليم الشاسع ، تلمع عيناه من الحماسة حين يتكلم عن « قومه » وعن مشاريعه ، وما كدنا نحن نتحدث عن مشروعاته لإصلاح الصحراء وفى إطعام قومه الجياع حتى انبرى يتحدث بحماسة عظيمة ولا يكف عن ذكر المياه والمياه والمياه والمحاصيل التى كان فى الإمكان زرعها لو توفرت المياه ، وإنه لواجب عسكرى لكنه لا يتطلب من أجله بنادق الكتيبة الأجنبية The Foreign Legion ولا ما تقوم به «فرقة الجند البيض» من فعال « الموت للمجد » وكل ما يتطلبه هو حامية Garrison من خبراء البحوث الصحراوية يعسكرون فى قلعتهم الخاصة وهى « المعامل» وقد أتيح لى فى غداة اليوم التالى أن أشهد هذه «الحامية» وهى جماعة صغيرة مكونة من عالم بالنبات Botanist وآخر بالأحياء Biologisted وثالث بالتاريخ Ar chealogisr والرابع عالم بالطبيعة phisi cist كان هؤلاء الأربعة هم الهيئة المستديمة من موظفى المعامل وتجىء لهم الفينة بعد الفينة كل سنة أمداد من رجال جامعة مدينة الجزائر أو من باريس أو من بريطانيا أو غير ذلك من علماء أقطار المعمورة المختلفة الذين يفدون على بنى عبس ليتخذوها مركزاً لبحوثهم الخاصة فى أحوال الصحارى . والأصح هنا أن يسمى عالم الأحياء «عالم البيئة الحيوانية » لأنه لا يقصر دراسته على حيوانات الصحراء وحشراتها فقط بل يهتم لدراسة الطبيعة المحيطة بهذه الحيوانات من جميع النواحى . ذلك هو فرانكلين بيير Franklin Pierre رجل فرنسى ذو شعر أحمر وتساعده فى أبحاثه زوجته التى كانت موظفة فى حكومة فرنسا فى باريس ، لكنها فضلت المجىء إلى بنى عبس ليتولى زواجها الكابتن بنفسه فى منطقة القلعة ذات المناظر الساحرة وفيها أيضا تتلقى

تبريكات القسيس الذى قطع ٣٥٠ ميلا ليقوم بمراسم هذه التبريكات .

وقدخرجتُ مع فرانكلين بيير إلى « إرج شيش » ومعناها منطقة العواصف الرملية وقمت برحلة ثانية إلى هذه الصحراء مع فيليب جينيه Philip Guinet النباتى الذى لم تكن مهمته أن يجوب الصحراء فى طلب نباتاتها ولكن عليه أن يجلب من الخارج أنواعا صالحة للنمو فى الصحراء لذلك كانت مهمته أن يختبر نباتات مناطق الصحراء المختلفة الأرج erg و المنطقة الرملية و الحمادة ham mada والصحراء الصخرية وأيضا نباتات الوديان ومنطقة الأرج هى غنية بأنواع نباتاتها ، لذلك يستطيع العالم أن يبحث كل ما يمكن عمله من تهيئة أو أقلمة لمقاومة الجفاف ، فهناك تشاهد مثلا نباتات ضئيلة لا تزيد على حجم الأقحوانة daisy ولكنها ذات جذور غائصة فى التربة نحو العشرين قدما . ثم شجر « الأتل » وهو فى الصحراء شجيرات صغيرة الحجم لكن جذورها تغوص فى التربة نحو ١٠٠ قدم . و إن الحشائش التى تنمو على حافات الصحراء هى من نوع السرو Cypress والزيتون البرى والسنط والسدر والعناب Jujubier أو النبق lotus ونبات حبق الراعى armolie ذلك النبات الأسمر الذى ترعاه الماشية — لحمى التكوين ذو الرائحة العطرية مثل رائحة الصعتر thyme كل هذه النباتات ذات بشرة سمراء اللون greyish أو رمادية كما أن نباتات المناطق الملحة salt جميعها ذات لون أزرق . وهكذا يودع المسافر فى الصحراء تلك الخضرة النضرة التى ألفناها فى أجوائنا الرطبة . وكل غريب مثلى ممن يجهلون طبائع نباتات الصحراء جهلا تاما ليتملكه الدهش والاستغراب من هذه النباتات الصامدة لجفاف الصحراء بصبر غريب . فهذه شجرة تغوص نحو ١٠٠ قدم لتتصيد الماء من الطبقات السحيقة . و هذه الزهرة من الأنواع التى لا يتجاوز عمرها اليوم أو الأيام تبلغ كل تطوراتها من البذرة إلى الزهرة إلى الثمرة فى أسبوع واحد تتلقف فيه مناوشات المطر الخفيفة ، فإذا اكتملت مجموعة تطوراتها البديعة ذبلت وماتت وخلفت من بعدها بذورها رهائن فى قبضة مناخ لا تستطيع أن تبرز فيه ومع ذلك فإنها ما فتئت تترقب مناوشات المطر النادرة فتثبت

وجودها مرة أخرى ثم جُلت حقول التجارب (المشاتل) مع جينيه Guinet ذلك الشاب الملتحى اللطيف المتحمس الذى يظنه من يراه فنانا من الحى اللاتينى فى باريس وتربى فى هذه الحقول نباتات الصحراء و بعض النباتات الغذائية المجلوبة من الخارج لعلها تتأقلم وتحل محل نباتات الصحراء .

ومدام منشيكوف Madame Menchikoff زوجة الأستاذ هى بنفسها التى أسست هذه الحقول ولم يتم على وجودها فى هذه المنطقة سنتان ، ولم تكن عند بداية إنشائها شيئا آخر عدا الصخور والرمال . أما الآن فهى معجزة الماء و ما يستطيع أن يفعله فى رمل الصحراء فهذه هى أنواع مختلفة من النبات : برتقال فى حجم جريب فروت grapefrui ، بطاطس ، قنبيط ؛ الهلبون (كشك ألماظ) الخ كما يوجد القليل من الشعير والفصوليا والليمون والطماطم والكافور والحمص وهذه طماطم كبيرة غزيرة العصير ، ولما يمض على زرعها أكثر من شهرين ونصف شهر وتلك هى ثمار الليمون منتشرة بين أغصان أشجاره . وعلى مقربة من القلعة الحديقة العسكرية وهى حديقة ميسورة موفورة الرى والسماد يزرعون فيها الخشخاش ليستخرجوا منه المورفين اللازم للمستشفى ولكن تجربة زراعته تهدف إلى جعله مورداً ماليا حيثما يمكن بيعه للصيادلة فى أوربا و يشترى بثمنه القمح والحمص لإطعام العرب ، وهذه الحديقة هى التى تزود القلعة بأنواع الخضر وفيها تشاهد كل الأنواع التى تتذكرها فى حدائق أوربا بل الكثير غيرها . كل هذه نتائج جلب الماء للصحراء واستخدامها فى الرى المنتظم .

ومن العجيب أن العصافير (الزرازير) التى ألفناها من عهود بعيدة واليربوع الذى هو فأر الصحراء هما محنة الفلاح فى الصحراء ثم هبطتُ إلى الواحات الفسيحة وشاهدت الزراعة الواسعة التى يقوم بها الفلاحون العرب ، وزراعتهم الرئيسية بحكم الطبيعة هى النخيل ، ولكنهم يزرعون أيضا الخضر والحبوب — الشعير والقمح — و يصلهم الماء فى غدران تتدفق فى فصل الأمطار وتنتشر فتعم الوادى . وفوق ذلك فان لديهم مياه الينابيع المستمرة طول العام التى تمر فى طريقها على حوض السباحة التابع للمعسكر قبل أن تصل إلى قنوات رى الأراضى الزراعية . وهذه المياه هى فى حيازة (أو ملك) أسرة تسمى « بيت قائد » Kaid وأعضاء هذه الأسرة نحو أربعين رجلا يستوفى كل

منهم نصيبه من الماء ، ثم يبيعون الزائد منه لملاك الأراضى الآخرين فى مقابل حصة من محصولاتهم . وعمال الزراعة لا يتقاضون نقودا أجرا على عملهم بل يمنحون مقابل ذلك جانبا من المحصول الذى يخدمونه .

ويؤكد الأوربيون المطلعون على أحوال هؤلاء العرب أنه كلما حدثت قلة فى المحصول يعمد أعيان العرب أو سادتهم إلى تقسيم المحصول بالتساوى على جميع أفراد القرية بحيث لا يعانى أحد من المجاعة أشد من غيره بقدر الإمكان .

حتى تقسيم المياه بينهم له تقليد بقواعد معروفة لديهم فقد عهدت أسرة قايد إلى رجل منهم أعمى اسمه « طالب » أن يكون حارس الماء ، وأن يتولى هو توزيعه ، وطالب هذا يسكن فى «القصر» والقصر هو القرية الأصلية لقبيلة بنى عبس وشوارع القرية هى سراديب تمر أسفل من البيوت المبنية بناء متينا من اللبن (الطوب النىء) وإنها لمشتبكة اشتباك خلية النحل ، ففى طابقها الأرضى حظائر الحمير وغيرها من الدواب والدواجن ، وفى طابقها العلوى يسكن الناس ، وتحت القصر تجرى قناة ماء وهناك فى ركن مظلم يجلس طالب على حجر منحن أنهكه طول جلوسه عليه هو وأسلافه ومن يحضرون لإيناس الرجل الأعمى والسمر عنده . وإنه عميد نظام إقطاعى متوارث ومقدس بحكم القرآن لا تستطيع الإدارة الفرنسية التدخل فى أحكامه ، وبمقتضى هذا النظام يقيس هذا الأعمى مقدار الماء الذى يكفى أرض كل شريك فى العين بأن يلمس بيده الدلو النحاسى الذى يمزح به الماء ثم يضع فى داخله قدرا نحاسيا صغيراً (طاسا) مخروقا من أسفله ؛ فيغوص الدلو فى الماء ببطء والماء يصل إلى داخله من الثقب شيئا فشيئا محدثا صوتا غريبا مثل غرغرة تفريغ مياه الحمام إلى أن يمتلىء الدلو فيغوص إلى نهاية حدوده ، وهذا الصوت الغريب يعد الأعمى مرات حدوثه فيعرف أن كل شريك فى المياه استوفى حقه منه .

وحينئذ يرسل العميد المذكور إلى القائم على نقطة توزيع المياه على القنوات التى استوفت نصيبها ليفتح الطريق إلى غيرها وهكذا يجلس العميد ليحول مياه العين من قناة إلى قناة طول يومه .

وأعيان القرية وهم بيت فايد عرب خلص أما الفلاحون الذين يخدمون الزرع فمعظمهم من سلالات زنجية حصلوا عليهم من الأعراب الرحل فى البادية .

وكان على أن أقابل مسيو بويتو الخبير بطبقات الأرض Mr .Paueyto وكان السبيل إلى ذلك أننى وزعت جماعات للبحث عنه لأنه خرج ترافقه زوجته إلى رحلة استكشافية مقرر لها ستة أشهر . وكانوا يجوبون الصحراء فإذا جن عليهم الليل دقوا خيامهم حيثما اتفق. ولم يتركوا عنوانا لهم أما جورج فيجانوفتش Georges Viganovich فهو عضو الفرقة الخبير بعلم طبقة الأرض geo-physicist وقد أمضى مدة زيارته الأخيرة فى باريس يجمع لوازم مهمته وما فتىء طول مدة رحلته معى فى القطار أو فى العربة يقبض بحرص ورفق على مقياس مغنطيسى رقيق جداً كمن يقبض بحنين وشوق على طاقة زهر مهداة إلى عروس ، وما كان ليطمئن لأحد غيره ليحرسها حتى أنا لم يطمئن إلى تكليفى بهذه المهمة العزيزة عليه . وكان طوال الرحلة يفخر بعمله المغنطيسى و بانه استطاع أن يكشف مغارة تحت رمال بنى عبس وصخورها بستين قدما بفضل أجهزته المغنطيسية . وكان جهازه الجديد يحتوى «عدادات جيجر» Geiger-Counters لدراسة المواد ذات النشاط الإشعاعى وقوة تأثير الأشعة الكونية الغامضة الدائمة الإنطلاق على الأرض من الفضاء وشرع الآن يتوسع فى بحوثه فانتقل إلى الكهربائية الجوية ثم يقوم بعدئذ بدراسات أولية على الطاقة الشمسية .

وما كان منه إلا أن دعانى إلى زيارة المغارة التى كشفها فى حماسة لا تشبهها إلا حماسة طفل يلح فى أن يريك حجرة لعبه .

ثم دعانى أن أعاونه فى حفل تركيب مقياسه المغنطيسى الجديد ولكننى شهدت هناك مأساة محزنة تجمد لها العيون ذلك أن حشرة « الأرضة » انقضت على التراكيب الخشبية فى المغارات وأكلتها وهى التى قضى جورج فى تركيبها الشهور العديدة يقيس وينظم ، مما ترتب عليه هبوط بعض أجزاء المغارة لا سيما وأنه فى هذه البقعة السحيقة عن العمران — والخالية من العمال المهرة كان جورج مضطراً لأن يقوم بنفسه بكثير من العمل اليدوى المضنى فى إعادة تركيب ما فسد قبل أن يشرع فى بحوثه العلمية الجديدة .

لكن جورج مثل غيره من العمال المقيمين فى الصحارى — لم يسعه إلا أن يستسلم للمقادير to be fatalist فهنا فى الصحراء الزمان مثل المكان لا حدود لهما . وعلى كل فهذه المأساة لم تفسد ما رتبه أعوان جورج فى العمل وما أعدوه من مأدبة تحية له وابتهاجاً بعودته لوطنه فأرسلوا خادمهم الولد إلى القرية ليجلب لهم من المخازن العامة مقداراً من النبيذ . ولاشك أن وصفهم لهذا الرسول بأنه « الولد » كان من قبيل تسمية الشيء بضده فما هو إلا شاب عربى أسمر ذو لحية سوداء وعمامة كبيرة ، سبق له أن تمتع بأربعة عشر زوجة وبالطبع لم يجمع بينهن لأن شريعة القرآن لا تجيز الجمع بأكثر من أربع . ولكن من السهل عليه أن يتمتع بالعدد الكثير فما عليه إلا أن يتلفظ بطلاق ما يشاء منهن وحينئذ ليس فى وسع أهلها إلا ان يبادروا بإعادتها إليهم « أيما »[1] أى غير متزوجة وزوجته الحالية هى طاهية المركز التى أعدت للمائدة « الكسكسى » وطاجناً كبيراً مملوءا بالفريك المجروش وحفنة كبيرة من البسيسة التى قضت السيدة الساعات تعالجها بيدها إلى الحجم المطلوب ، وقد دفنت فى هذا الطبق الدجاج الصحراوى الهزيل العارى الرقبة من الريش ، والذى قدم معه مرق ثقيل الأفاويه الحريفة التى يظنها من يراها لأول مرة أنها مشه فيتناول منها بحرية فتشوى سقف حلقه ، ولما كنت أنا حديث العهد بذلك كله — وسوف أبقى حديث العهد أتعلم كل يوم شيئا جديدا على مدى رحلتى البالغة ١٠٫٠٠٠ ميل — ولظنى أن من التحية للطاهية أن أتناول جميع ما يقدم لى ، فعلت هكذا فى الكسكسى — وما كنت أدرى أن العادة على عكس ما فهمت وهى أن يترك الطاعم معظم ما يقدم له ليسر الطاهيات فهمت ذلك مما شاهدته بعد مغادرتنا المائدة من التفاف جميع الأقارب حول الموقد فى ردهة الدار ينتظرون ما يتبقى من المائدة ليطعموه هم أنفسهم .

وفى أثناء تنقلاتى القادمة بين العرب ، وهم أولئك الذين اشتهروا باكرام الضيف — فقد حضهم على ذلك القرآن — سوف تتاح لى الفرص الكافية لأطعم (أو فى الحق لأعانى) من الكسكسى ، أعانى حتى فى آخر تجربة لى مع جارى على

(١) هذه صورة من صور سوء استعمال الرخصة المشروطة بالعدل وهى صورة لا وجود لمثلها فى معظم البلاد الاسلامية (المعرب)

المائدة من الضيوف الذى أراد أن يكرمنى فقدم لى عين الخروف التى كانت محدقة فى كأنها تعتذر لى قبل أن ألتهمها . وهذا لأن من أحسن الآداب عندهم أن يقدم الآكل طيبات ما يقع فى يده لجاره من الضيوف . لذلك لم أجرؤ أن أعتذر له عن عدم قبولها منه .

ثم تعلمت فيما بعد أنه كان من الواجب على أن أرد التحية بمثلها أو بأحسن منها حتى أن الضيف يستطيع أن يكرم مضيفه بأن يرد له الطيبة المنتقاة .

وقد حدث حين شروعنا فى الخروج من بنى عبس إلى الصحراء أننى تلقيت رسالة مشوشة من لندن يطلب إلى فيها أن أبين فى رسالاتى المسافات بالأميال لأن ما أوردته منها فى رسالاتى السابقة لم يطابق الثابت لديهم فى الخرائط ، وكان جوابى عليها «تخطر البجع فى الصحارى» ليس من معناه «طيران الغربان» و إن تلك السهام المرسومة على خرائط خطة سفرى الساذجة ، ثبت أنها تمثل تجارب مضنية أدت إلى زيادة جدول المسافات المقررة لرحلتى من ٥٠٠ر٥ ميل الى ٥٠٠ر١٥ ميل منها ٥٠٠ر٨ ميل فى تنقلات على سطح الأرض والأمر المهم الذى أخطأنا تقديره فى إعداد الخطة هو أن المسافر فى الرحلة ، كثيراً ما يجب عليه أن يعود من حيث أتى !

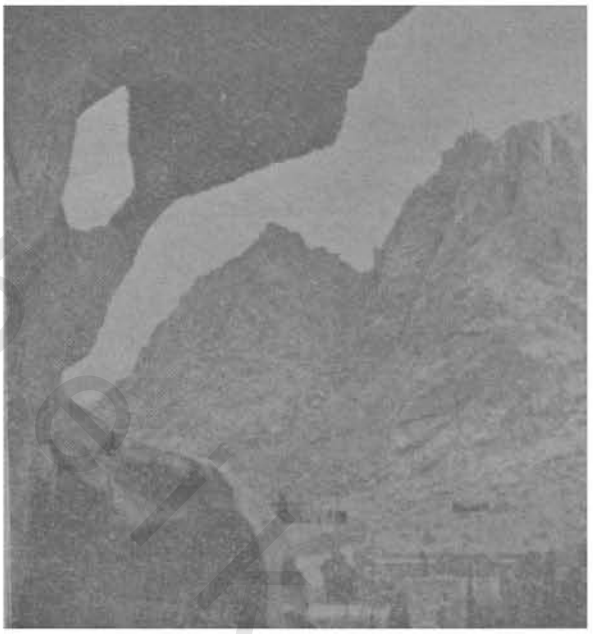

أثر الرياح فى تعرية الصخور الجرانيتية وقد نحتها هبوب الرياح الرملية المشرقة على دير سيناء فى جبل الوصايا العشر

أثر الرياح فى تعرية الصخور — صخور جرداء تحطمت وملات « الحمادة » فى شمال أفريقيا وهى بطيحة مترامية عريت من كل أثر للتربة الزراعية

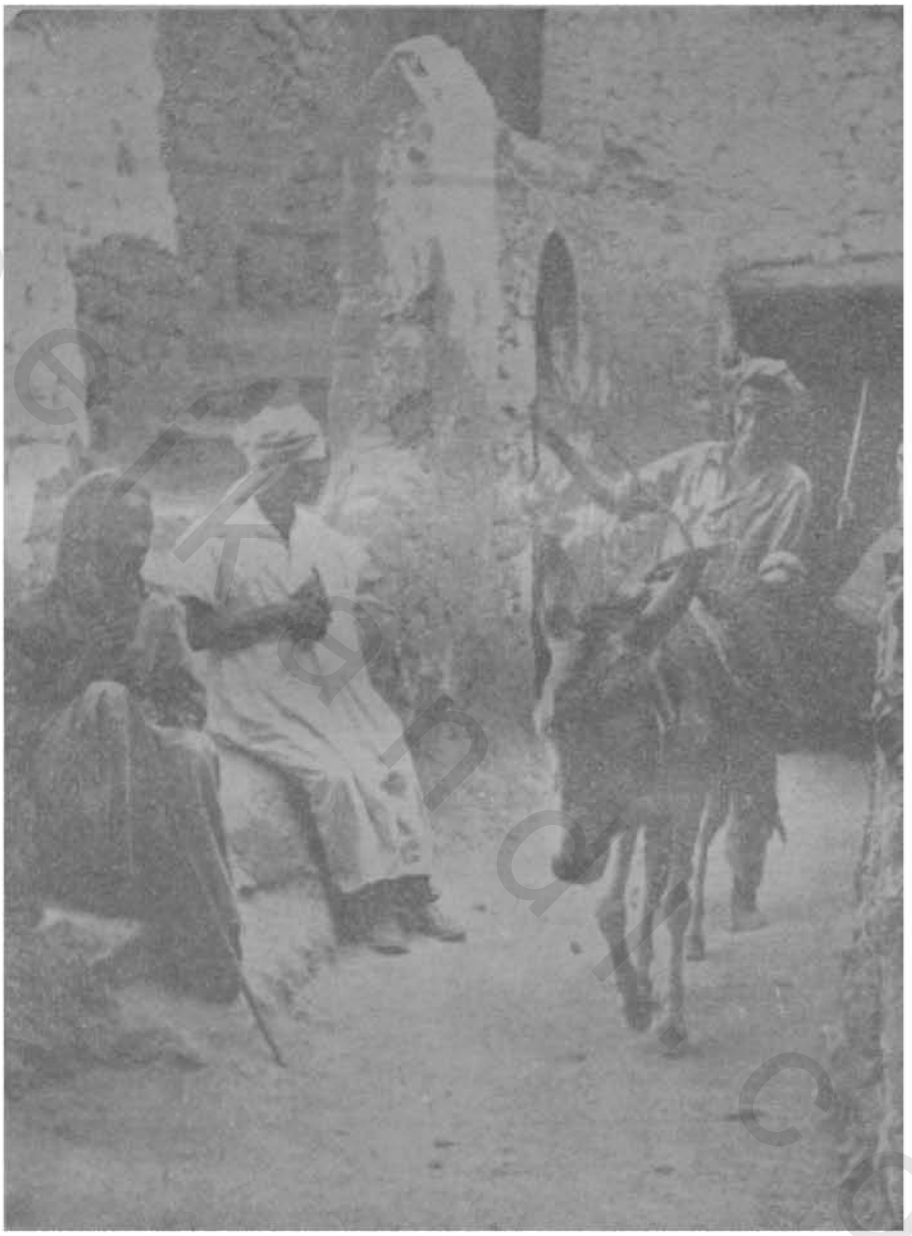

طالب وهو حارس عين الماء الأعمى وأمامه خادم حماره

الفصل الثانى

ورود الصحراء

نحن الآن فى الصحراء وفى الظهيرة تدثرت بمعطف واق من الرياح wirdproof و بحلة من نوع الثويد صناعة مدينة هارز Harris من فوقها قميص ثقيل ذو رقبة عالية مما يلبسه لاعبو كرة البولو ومن تحتها دثارى الشتوى المعتاد ومع ذلك فقد كنت مضطر بأفى مشيتى أتمايل من جهة إلى أخرى من شدة البرد ومازالت أسنانى تصتك بعضها ببعض للآن ، أما الضابط الذى كان يرافقنا فكان أحكم منى إذ لبس البرنس ومن فظاعة البرد لأننا فى شهر يناير صار جورج يثب ويثبات فى مشيه كالمجنون لكن لم يكن توثب جورج هذا راجعاً إلى تألمه من شدة البرد بل لأسباب أخرى فإنه كان يطمع فى الحصول على صورة شمسية لما يسميه علماء الطبيعة الكثيب الأبيض la dune blanche ومعناه عندهم الكثيب يكسوه الصقيع الإبيض وهو نتيجة من نتائج الطبيعة العسير الحصول عليها فى الصحراء فإنه لا يمكن مشاهدته إلا قبل شروق الشمس بثوان معدودة قبل أن تطلع عليه الشمس وترسل عليه أشعتها فيذوب ويختفى

وكان جورج يتحرق على الحصول على هذه الصورة ليتخذ منها دليلا محسوسا على وجود الطل أو الندى فى الصحراء و بعبارة أخرى على وجود الماء فى رمال الصحارى « القاحلة » والكثيب الأبيض هو المفتاح لحلقه مغلقة من سلسلة « التحولات المائية » — التبخر ، التكثيف ، الماء ، الآبار والينابيع — و يعتقد جورج — و يشاركه فى هذا الإعتقاد كثير من الخبراء — أنه من الممكن التغلب على جفاف الصحراء باستخدام الندى . والذى ضايقه هو أنه حال وصولنا إلى قرية إجلى [1] Jgli (وهى الواقعة على مسافة ٧٠ ميلا جنوبى بنى عبس وعندها يلتقى

(١) هكذا أثبتتها خرائط مصلحة المساحة المصرية (المعرب) .

وادى جوير Owed Guir بوادى سوارا owed Souara و يكونان نهراً واحداً يشق الصحراء جنوباً) حال وصوله إلى هذه النقطة وجد سارجنت ولتر Sergeant Walter يفخر بانه شاهد « الكثيب الأبيض » أسبوعا كاملا ، وفى كل مرة استمر نحو عشر دقائق وليس ثوانى معدودة كما كان هو يفهم .

وسارجنت والتر هذا هو المثال الصحيح « للرجال الذين ذللوا الصحراء » فقد وقع فى شراك الصحراء وهو عملاق ألمانى يبلغ من العمر ٦٥ سنة ولكنه ما زال يتسم بجلد رجال الكتيبة الأجنبية . وقصته أنه فى سنة ١٩١٣ تنازع مع والده فهجر ألمانيا واستخفى فى هذه الكتيبة وانغمس فى عداد أولئكم الرجال الذين اختاروا أن يجعلوا أنفسهم نسياً منسياً فى تلكم الأيام العاصفة الفليظة التى أطلقوا عليها تهكما منها « النكتة اللطيفة » Beau Jeste ثم أمضى جميع حياته فى الصحراء وعندما تقاعد عن الخدمة فى الكتيبة منذ سنوات قليلة لم يكن فى وسعه الرحيل عن الصحراء ، وتراه الآن رجلا محباً للعزلة يغطى رأسه بقلنسوة من نوع البيريه ، متورد الخدين فى استطاعته أن يلتهم مياه إطفاء الحرائق بالكتيبة ، وقد اختار لتفه وظيفة « حارس المياه فى سد إجلى » وهى مراقبة مياه الفيضان وتوجيهها إلى قنوات الرى وأحواضه وملاحظة بقائها المدة الكافية لسقى المحاصيل بدلا من جعلها طليقة تغمر المساحات الواسعة فتتعرض للتبخر والنفاد .

وقد قدم إلينا سارجنت والتر وردة من « ورود الصحراء » كبيرة كأنها قمة القنبيطة ، لكنها لم تكن وردة حقيقية بل هى عنقود من البلورات الرملية التى تنمو بشكل يشبه وريقات الزهرة (البتلات) غير أن هذه البتلات صلبة مثل الزجاج ، و يستطيع « جورج » أن يقرر لك بأن هذه « الوردة » دليل آخر على كثرة وجود الندى فى الصحراء ، فما هى إلا وليدة تعامل الندى والرمل والشمس .

وصادفنا الحظ فى هذه النقطة بأن أصبحنا رجال أسطورة من الأساطير حيث أطلقوا علينا « صناع المطر ! » حين قال أحد عرب البادية لا بد أننى « مرابط » marabout (أي من الأولياء ذوى الكرامات) لأن « المطر كان يتبع قدمى حيثما

مرت » . (والواقع أنه لم يتبع قدمى فقط بل طفى فملأ حذائى أيضاً) . فكنا فى نظرهم الذين أحضروا أول مطر فى الصحراء وأول ثلج لجبل أطلس . وبعض البقاع التى لبثت خلال عشر سنوات لا يصل مقياس المطر فيها سنوياً إلى بوصتين نالها ملليمتر أو ملليمترات كأنها عطية منا لمناسبة زيارتنا . وفى إحدى البقاع حيث كانت السماء صافية الأديم شرع بدوى يحفر قنوات الرى بسرعة جنونية مخاطباً الترجمان المصاحب لنا قائلا « سيتدفق حولناسيل جارف » وكأنه أدرك بحاسة الشم ، فإنها لم تمض ساعتان على كلامه هذا حتى تجمعت عاصفة ذات برق ورعد من أحلك ما شاهدنا من العواصف ، قلبت بظلمتها النهار ليلا ، وتحطمت فى الجبل بجلجلة رهيبة أما هنا فى الصحراء العراء فلم نشهد منها إلا السيول المتدفقة .

والبرق فى الصحراء يحدث الأعاجيب كأن تفريغ ما به من شحنات كهربائية يصيب الكثبان فيصهر الرمال ويحيلها إلى زجاج . ولكيلا يفوتنى تذكر هذا الحادث ، احتفظت بأنبوبة من الزجاج من هذا النوع « زجاج البرق » كأنه «غمد خنجر من البرق » .

ومع ذلك فالصحراء لا تستطيع أن تعتمد فى زراعتها على مناوشات المطر النادرة ولا على الزيادة العرضية التى قام بها « جالبو المطر » من رسل اليونسكو . لكنها تعتمد على ثلاث طرق كثيرة الاحتمال : أولاها الوديان وهى الجداول التى تجرى فيها المياه والتى يمكن ضبطها وحفظها : والثانية هى المياه الجوفية التى يمكن التوصل إليها بالآبار العادية أو الارتوازية والأخيرة هى الندى وأصارح القراء بأننى لم أتأكد من الفائدة العملية للندى وإن كان لدينا فى انجلترا المستنقعات المكونة من الندى فى أسافل المرتفعات ولكنى لاأستطيع أن أتصور مثل هذا فى الصحراء الجافة جفافا محرقا ومع ذلك فما لاشك فيه أن فى مثل هذه الأصقاع المتناهية فى الحرارة وفى البرودة، أدنى مقدار من الرطوبة فى الهواء (هذا عدا السحاب) يسقط من برد الليل فى صورة الندى ، ثم بتأثير الشمس المحرقة سرعان ما يتبخر هذا الندى كما يتبخر المطر مالم يجد له وسيلة للغور فى أعماق الأرض . وفى جوف كثبان الرمل المترامية كأنهار البحار ، لا بد من وجود مقادير محسوسة من الرطوبة . فإن هذه الكثبان تشبه مادة الإسفنج

فنستطيع ابتلاع المياه بطريقتين إما بواسطة المطر والنـــدى من فوق و إما بواسطة الامتصاص الشعرى بواسطة الصخور المسامية من أسفل . وهذا يفسر لنا الفجرات واحدتها « الفُجَّرَة » التى هى مثل حفر المناجم التى تشاهد فى سطوح التلال وفى حفر الأنفاق أسفل من الـكثبان ، والتى لا يفتأ يسيل منها الماء فى جميع فصول السنة ، والدليل على ذلك حقول التجارب فى بنى عبس فإنها تروى بهذه الفجرات . وهذه الأنفاق تغوص فى الأرض أميالا عديدة ولها فتحات رأســية بين مسافة وأخرى بمثابة منافذ توصل الهواء إليها ، وهذه الفتحات فى أصلها التاريخى كانت المنافذ التى يرمى المهندسون عن طريقها ما يحفرونه من التراب عند عمل الانفاق . لذلك هى ترجع إلى العصور القديمة جدا فى التاريخ ، وأكثر هذا الحفر من عمل الرقيق الذين لم يكن لحياتهم قيمة يحرص عليها ، أما الآن فانها تردم بالتدريج لعدم وجود الرقيق الذين ينزحونها مرة أخرى ولم توجد بعد الآلات التى تحل محل الرقيق فى هذا العمل الخطير

وسوف أعود لموضوعى النـــدى و « الفُجَّرَات » لأنى الآن مشغول برحلة ١٠,٠٠٠ ميل قبل العودة لموضوعها .

ومع أننى قلت آنفا أن الرق لا وجود له الآن — لـكن الحقيقة أنهم موجودون إنما مراعاة الذوق هى التى تجعل الناس لا ينادونهم بهذه الصفة ، ففى بعض نواحى الصحراء يوجد رقيق متعلقـون بسادتهم تعلق الرقيق المذكورين فى قصة « غرفة العم توم — Uncle Tom's Cabin » . و بعض القـادة أو العمد ذوى النفوذ فى بعض أصقاع الصحراء السحيقة يتمسكون بأن القرآن يبيح الاسترقاق . وعندهم أن العبد الآبق يتعذر عليه أن يجد من يحميه حتى فى شريعة « الرجل الأبيض » . ومع ذلك فهناك آلاف من الرقيق من نوع « آخر » وهو النـوع الذى عناه كولونيل كينارد بقوله « لقد حررنا الأرقاء قولا بالقوانين ولـكنهم موجودون فعلا فى الصحراء » وشرح قوله هـذا بقوله : إن حقوق التمتع بالأراضى و بالمياه فى الصحراء هى فى يد الأعيان وهم القادة أو العمـد وأسرهم . أما من عداهم ممن لا يملـكون شيئا من الأراضى — وهؤلاء عادة من سلالة الزنوج — فيعملون عند السادة للحصول على

« قوتهم » فأجرتهم هى طعام يأكلونه فى صورته الطبيعية ومأوى يحجزون فيه . وغاية ما فى الأمر أن سادتهم يلاحظون أنهم لا يتعرضون للموت جوعا إلا فى الأحوال القصوى التى يشترك فيها كافة القوم لكنهم لا يستطيعون الفرار من أسرهم إلا بالتسلل شمالا إلى مناطق السواحل الآخذة بالنظم الأوربية وحتى فى هذه المناطق نفسها يعانون بؤسا لعله أشد من الأول لأن الموانى قد اكتظت بجماعات المنبوذين من الصحارى .

ومما قاله كولونيل كينارد « ولن يدرك العرب التحرير الحقيقى إلا إذا توفرت موارد جديدة للماء واستصلحت وعمرت مناطق أخرى من الأرض . فيومئذ فقط يمكننا أن نحقق لأهالى الصحراء حياة أقوى وأعز مما هو ممكن الآن » وكانت إحدى جولاتى إلى تاغت Taghit ، وتاغت هذه بالنسبة للصحراء بمثابة بطاقة البريد المكشوفة

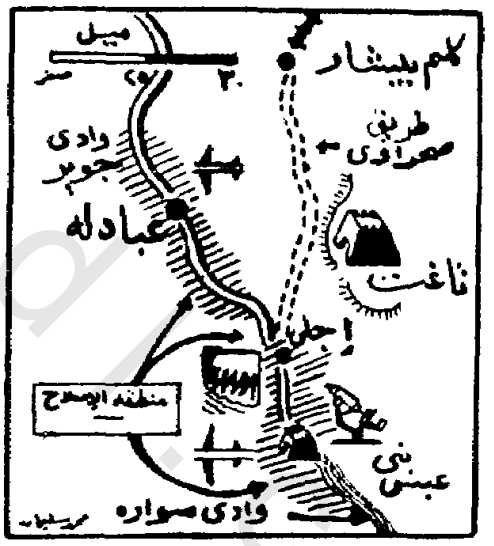

المصورة لذلك يطلقون عليها « لؤلؤة الصحراء » إذا وصل اليها الوافد كما فعلنا نحن — من خلف سلسلة من الجبال العالية — ورأى أنوارها المتوهجة ، وحرارتها المشعة لا بد أن يشعر بهزة وإحساس غريب تزداد منه دقات قلبه سرعة ، فكأنه يتوثب توثبا . وشعر الواحد منا كأنه قادم على « الجنة » أنها واحة طويلة قائمة فى واد تحضنه كثبان الرمال ، وهناك فوق قمة إحدى الربا شيدت قلعة كأنها من قصور القصص الخيالية تلك هى القلعة التى اتخذتها الكتيبة الأجنبية The Toreign Legion برج المراقبة فى الصحراء ، وقام أمامها فى الجانب الآخر حصن معد للدفاع دهنت جدرانه باللون الوردى وليس باللون الأبيض مثل قلعة بنى عبس حتى العرب أنفسهم ينظرون إلى هذه القرية كأنها جنة الصحراء ويستطيع الإنسان أن يفهم ذلك من كثرة ما بها من المرابطين (أى رجال الطرق والخلوات) وما بها

من قباب أضرحة الأولياء المسلمين . حقا أنها جنة ، ولكنها جنة الخيال والمناظر لا تسمن ولا تغنى من جوع !

فالطعام الوحيد لسكان الخمس القرى القائمة فى حوض الوادى البالغ سكانه ٣٠٠٠٠ نفس هو التمر والماء ، وأنهم لا يرون الخبز أبدا ، ولا ينعمون أبدا بشاى العرب الحلو والمقطوع به أنهم لم يطعموا اللحم قط ومحصولهم الوحيد هو التمر وليس لديهم سبيل لمبادلته تجاريا بأصناف أخرى مثل السكر والشاى والدقيق وغير ذلك .

وترى الواحة تتلألأ فى ضوء الشمس كأنها مكسوة بالثلج وكذلك الماء يلمع ، لكن الذى يلمع فيه هو الملح تغطس فيه الأقدام للكعبين لأن الماء ذاته ملحى لذلك تربتهم غير صالحة لشىء ، ولا شىء ينمو فيها سوى النخيل الذى لا يبالى بالملح بل يحيا وينمو بالرغم منه . وثمت فكرة لتجربة زراعة الدخان ليكون محصولا تجاريا يجلب بثمنه بعض الحاجيات الضرورية ، ولربما زرعوا الخشخاش (وهو المحصول محل التجارب فى بقاع أخرى من الصحراء) ولكن عندى أن مقترحى زراعة الخشخاش وهم يعلمون ما عليه هؤلاء القوم من فقر مدقع خالفوا عن جادة الصواب . فان القوم إذا عرفوا خصائص مادة الأفيون فى تخدير الآلام وإزاحة الهموم أدمنوا تعاطيه ومن ثم تنجم مشكلات محاربة الادمان ومراقبة المحصول .

وقرية عبادلة Abadlah الواقعة على مسافة ٦٠ ميلا من غربى تاغت لها قصة مختلفة عن هذه ، فإنه على خلاف مرأى تاغت للوافد عليها وهو الذى يضطرب له القلب «من» الابتهاج كما وصفنا ، مرأى «عبادلة» الوافد عليها رهيب يجمد له الدم فى العروق ، فلا بد للقادم عليها من أن يعبر مفازات موحشة ، ويخترق مضايق فظيعة بين الجبال المحدقة بالأخطار ، وأن برية من الملح كأنها جلجثة [1] المقطوعة عن العمران Golgotha .

وكنت وضعت السؤال الذى ما زال يشغلنى ويلازم ذهنى فى حديثى مع الكولونيل

---

(١) هذا هو اسم الربوة التى يزعم اليهود أنهم صلبوا المسيح عليه السلام فيها . (انجيل متى ٢٧/٣٣) (المعرب)

كينار فى كُلُم بشار ، وهو سؤال من قبيل أسئلة الأطفال ولكنه عندى مفيد كل الفائدة وهو « من أين جلب هانيبال الفيلة ؟ » فإن فيلة هانيبال ما فتئت تثير خيالى منذ سمعت بها لأول مرة فى درس التاريخ ورأيت كيف إن هذه الدواب أزعجت الرومان حينما رأوها تقدم عليهم تسكر على عجلاتها وتنحدر عليهم من ثلوج جبال الألب فغذو إيطاليا من بابها الخلفى . فمن أنى له هذه « الدبابات » البدائية ؟ فإن كان جلبها من آسيا (فإن بعض الدارسين يرون معتمدين على التجارب الحديثة فى بلاد الكونغو وفى حدائق الحيوانات أن نوع الفيل الأفريقى لا يمكن ترويضه لمباشرة الحرب) إن كان ذلك فكيف نقلها من آسيا إلى هذه الميادين وكان لا بد له أن يعبر صحارى الشرق الأوسط ، إذا فلا بد أن هذه الصحارى لم تكن فى ذلك الزمن القصى كما نراها الآن ؟ وإن لم تكن هذه هى الحقيقة ، وكان الصواب هو الرأى الآخر بأنها فيلة من وسط أفريقية أمكن ترويضها — والفيلة بلا شك لا يمكنها قطع المسافات الصحراوية المترامية — فلا بد إذا أن الصحراء الكبرى أيضا لم تكن على ما هى عليه الآن ، وإلا إن كان جلبها من أواسط أفريقيا منحدرا مع وادى نهر النيل فبالمثل لا بد أن صحراء ليبيا والصحراء الغربية لم تكن هى أيضا على ما نراه الآن . بقى أمر واحد ، وهو افتراض جلبها من شمالى أميريقيا ذاتها — وعلى هذا الرأى لا بد أن شمالى أفريقيا كان غابات مما تأوى إليه هذه الحيوانات . فأنت ترى مهما قلبنا من آراء ، فالنتيجة الحتمية هى أنه لا بد أن الصحارى المشاهدة الآن كانت شيئا آخر فى العصور الخوالى .

وكان لا بد أن أشعر بشىء من القلق العصبى بسبب توجيهى هذا « السؤال » لقائد كبير ومع ذلك لم يكن هناك محل للمضايقة لأننى دون استعمال كثير من سرعة البداهة وقفت على الموضوع العزيز لدى الكولونيل كينارد ، فإنه بدون أدنى تردد انبرى من مقعده إلى الجانب الآخر من الحجرة وأشار بأصبعه إلى نقطة فى الخريطة قائلا « لقد أتى بها من تلك الطريق » وكانت إشارته مؤكدة إلى وادى جوير وقدم لى دليلا على صدق قوله (سيتونيس بولينس — ذلك القائد الرومانى

الذى قهر بوديشيا — SuetonuisPaurlinus& Boadicea) لقد جاء فى وصف هذا القائد لغابة جوير سنة ٤٧ م أنها كانت تسكنها الفيلة والأسد وغيرها من الوحوش ولذلك عزم على الكولونيل أن أزور تلك المنطقة وقد فعلت .

وقد وضعت السؤال نفسه للقائد فى قرية العبادلة حيث يوجد مركز القيادة لنقطة جوير ، فكان جوابه مؤيداً جواب الكولونيل كينارد فلوحت ببدى مشيراً إلى عرض الصحراء متسائلا « إذاً ما الذى اعترى تلك الغابة ؟ » فأخذنى بيده إلى حيث يوجد شق كبير فى جدار القلعة وقال لى وهو يشير إلى قمة تل على بعد ١٥ ميلا لقد كان فى زمن من الأزمنة « مرابط » وهو رجل صالح مسلم اسمه سيدى الطيب وهذا ضريحه عنده الجواب على سؤالك . ثم أخرج من محفوظاته أسطورة سيدى الطيب فهمت منها أنه كان من أولياء الله ذوى الكرامات يمكن أن نسميه « قطب العرب » St Patrich of the Arabs ففى يوم من الأيام عضته حية من ذوات القرون كانت تعبث فى غابة بجوير ، فدعا الله وصاح بالحية قائلا « أنا السيد الطيب آمرك بإذن الله بالرحيل فوراً عن منطقة جوير لأنها فى حمايتى » . ثم مات وتضيف القصة أنه بعد موته بستة أيام فرت الفيلة والأسد والزواحف من جوير إلى عالم النسيان ومع ذلك فالجواب على سؤالى كان فى حاشيته فى ذيل هذه الأسطورة تقول « وكان من أمر أتباع هذا الولى — وهم الذين تلقوا بوصية منه الغابة — أن اجتثوها فامحت معالمها [1] .

« اجتثوها ! » هذا هو الجواب أو المأساة التى سمعتها يردد القوم ذكراها سواء كان ذلك فى شمالى أفريقيا أم فى الشرق الأوسط كله . وعندى سواء أكان سيدى الطيب هو الذى دمر جوير أم هم الصليبيون دمروها كما دمروا أشجار البلوط (من غابة شارون المسحورة Forest of sharon. في الأرض المقدسة ، أوهم بدو ليبيا الذين احتفلوا بانتصارات الجيش الثامن على الإيطاليين الذين حكموا حكم الطغاة فيهم حقبة من الزمن فكانت طريقة احتفالهم أنهم اجتثوا نحو المليون شجرة

(١) ظاهر بداهة أن هذه القصة من وضع القصاص من جهلة البدو أو من أعداء الدين الاسلامى ليشوهوا بها حجة العقل التى لم ينفك عنها قط (المعرب)

لأن الطليان هم الذين غرسوها فى بلادهم .

ومع ذلك فإن غابة جوير لم تذهب آثارها إلى الأبد ، فإن تجربتى كانت مريحة للنفس إذ استطعت أن أجد فى هذا الأفق الجبلى ما يشبه بقايا حفر صهر المعادن بعد خروجى من نطاق المعسكر وفوق ربوة عالية شيئا بهر بصرى من «خضرة انجليزية» لايكاد يجد المسافر شيئا غيره فى الصحراء ، وقد كانت هذه الحفرة حقل قمح حديث الإنبات ، تجاوره حديقة السوق الفسيحة التابعة للمعسكر تحوى تقاسيم زاخرة بأصناف الخضر التى ألفنا مثلها فى الحدائق خلف منازلنا فى انجلترا ، هذه كلها ناطقة بأن غابة جوير لم تزل أمينة على خصب تربتها .

ويمتد هذا الوادى إلى جهة الشمال إزاء جبال مراكش وسعة عرضه فى المتوسط ثلاثة أميال . ولربما يصيب نحو خمسة فيضانات فى السنة ، ومعنى هذا فإنه كلما تصطدم العواصف الثلجية بجبال مراكش الشاهقة تدفقت منها السيول كأنها فى هجومها جدار متحرك من الماء ارتفاعه أحياناً فيما بين ثمانية أقدام أو تسعة ، وليس ما يحمله السيل مقصوراً على الماء الذى تتعطش إليه أرض الصحراء المحرقة بل يحمل معه أيضاً ذلك الغرين المجروف من الجبال والذى يترسب على الأرض تاركا عدة بوصات منه بعد انحسار الفيضان .

ولقد سارت عرباتنا عبر هذا الوادى فى طريق صلب كأنه مصبوب بالمسلح ، والآن وقد مضى على ذهاب الفيضان أسبوع واحد أصبح هذا الطريق السوى « وعراً » لأنه تشقق بسبب وجفافه وتقلصه ، فهو الآن طعى حرقته الشمس يستطيع من يريد أن يرفع الكتل منه تشبه ألواح « البلاط » مما جعلنى أمازح أحد المهندسين قائلا أن هذه المنطقة تستطيع أن تجعل من هذا « البلاط » سلعة تصدرها بالسفن وغيرها إلى الصحارى الجرداء ولكنه لم يدهش بل قال إن هذا ليس مزاحا بل هو حقيقة إذ استطعنا فعلا أن ننقل منه إلى بعض حدائق الربا المرتفعة فى بقاع أخرى .

وقد كنا فى هذه الجولة فى صحبة المهندسين الزراعيين التابعين « لجمعية الإصلاح الزراعى » "Society for Bural Amelioration" .

وقد قام هؤلاء الخبراء الزراعيون بمسح وادى جوبر وأسفر بحثهم عن شهادتهم بأنه بأبسط الوسائل الحديثة يمكنهم أن يستصلحوا فيه عاجلا للزراعه نحو ٥٠,٠٠٠ فدان انجليزى ويعتقد الكولونيل كينارد أن هذه المساحة يمكن التوسع فيها حتى تنتج من القمح ما يكفى كل سكان الصحراء الفرنسية . وهذه المساحة هى فى المنطقة الداخلة فى نفوذ البدو الرحل من ذرية سيدى الطيب . ولما كان هؤلاء فى تنقل دائم اعتادوا أن يتحينوا نزول السيل أو الفيضان ويحرثون الأرض عقب انحسار المياه عنها ثم يتركونها وينصرفون إلى تجوالهم فى ارتياد الكلأ حتى إذا حل موسم الحصاد رجعوا لزراعتهم ، فحصدوها ودرسوها وذروها بالأدوات والطرق البدائية فتراهم يدقونها بالعصى ويقذفون بها أمام الريح لتعصف بالتبن عن الحب .

وتفكر الجمعية بعد موافقة القبائل فى تنظيم زراعة جماعية تستطيع حينئذ أن تمد المتعاونين بآلات حديثة ، مثل الجرارات الثقيلة والخفيفة والمحاريث ذات السكك الحديدية وغيرها من آلات تفتيت التربة السطحية المتكتلة ، وتشقيق الطبقات الأسفل منها ليتمكن ماء الفيضان من الغوص فيها فيخلص من التبخر ، ثم يقام فى وسط كل مساحة محطة للتجارب الزراعية لانتخاب الأنواع التى تعطى المحاصيل المناسبة لكل بقعة والأوفر إنتاجاً منها وتقوم بتربيتها وإكثارها .

ويستطيع الخبراء بهذه الأدوات الحديثة أن يحرثوا الأرض ويمهدوها لجميع مزارعى القبيلة ، ولربما قاموا بعملية البذر أيضاً وأخيراً يقدمون المساعدات فى عمليات الحصاد والتسويق وفى مقابل ذلك يأخذون جانباً يسيراً من التكاليف إذا رؤى لزوم ذلك كما أنهم يفكرون فى زراعة محاصيل ثانوية مثل الخشخاش والقطن بقدر الاستعمال المحلى فقط .

بهذه الوسائل يمكن استعادة خصب وادى جوبر لمثل ما كان عليه فى العهد القديم . كما يضاف إلى هذه الوسائل بناء خزانات لكسر مياه السيول المنهمرة وتحويلها إلى حيث تكون الفائدة منها أكثر من غيرها ، وليست هذه الخزانات

من نوع خزانات الحجز المعتادة ، كما يجب إنشاء وسائل الوقاية فى الجبال مثل إعادة غرس الغابات التى تمنع نأكل التربة وتسرب مياه الرى . ولا شك فى أن هذه الخزانات سوف تقلل من مقادير الطمى المجلوب مع المياه ولكنها فى مقابل ذلك تطيل مدة الفيضان بتحويل شكله من سيل منهمر إلى جداول أو نهيرات .

وفى شمالى « عبادلة » قابلت شيئا كان فى نظرى عجيباً وهو منجم فحم فى الصحراء .

ولأول وهلة لم تهتم البعثة المختصة ببحث موضوع إنتاج المواد الغذائية فى الصحراء بالعثور على هذا المنجم أكثر من أنه « نبأ عرضى » صادفها فى الرحلة ، ولكن الوقود فى الصحراء هو فى الحقيقة مما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمسائل الغذاء وليس هذا من ناحية طهى الطعام بل هو بدون أدنى مبالغة من الأسباب الأصلية الضرورية فى الصحراء بل يذهب بى القول إلى أن الطاقة أو القوة لا يسبقها بين عوامل إصلاح الصحراء إلا الماء .

ولقد كنا نشاهد من حين إلى الآخر جماعات من النساء ، لأن النساء والجمال والحمير هى دواب الحمل فى الصحراء ، فتراهن يحملن على عواتقهن أحمالا مثل أحمال الجمال بدون أية وقاية تحفظهن من ألم هذه الأحمال ، ويقفن فى صفوف طويلة فوق الكثبان وتحت حر الهاجرة عَوَانٍ تحت هذه الأثقال . وإذا حاولت الإقتراب منهن وليّن وهرولن إلى الإتجاه المضاد لاتجاهك ثم تسمع لهن رغاء و بلبلة كقطعان الأوز المنزعجة ، وما ذلك إلا لأن تعلقهن بأحمالهن حَالَ دون تحجبهن عنا نحن الرجال الكفرة فلا يسعهن فى تواضع جم إلا أن ينزلن على حكم ديانتهن ويولين الأدبار مهرولات منزعجات ، وقد تحقق الدليل المرافق لنا من شخصية هذا الجمع من النساء — من شكل ملابسهن — وأخبرنا بأنهن من واحة تبعد عن نقطة مقابلتهن بأربعين ميلا . وهكذا تكدح النساء الأيام الطوال فى طلب الوقود فإذا عثرن على شجيرة منفردة أو مجموعة من العشب تعاون على قطعها وحملها ثم يتابعن السير والبحث عن غيرها وغيرها حتى يكملن أحمالهن جميعاً فيقفلن راجعات إلى ساداتهن أو أهلهن تنوء ظهورهن بأحمال الحطب الثقيلة ، يعانين كل هذا فى طلب الوقود الضرورى لتدفئة القوم فى الليالى

حارسه البرد وليطهين على ناره الطعام . ولكن بعملهم هذا وهو استئصال الشجر أو اجتثاث الأعشاب تكسب الصحراء زيادة جديدة ، فإن التربة التى كانت متماسكة بجذور النبات المقتلع تتفتت وتذروها الرياح إلى حيث تهبط على كثيب أو شجيرة فتطمرها ، ولعلَّ البقعة كلها كانت فى يوم ما حديقة غناء .

وثمت منظر آخر شهدته ولا أنساه لأننى لم أتوقعه وهو منظر رجل مرتد برنسا وراكبا دراجة مصفحة يجرى بها فى الصحراء الخالية من الطرق الممهدة متوجها إلى محل عمله فى منجم كنادسا Kenadsa .

فها هنا فى غربى كُلُم بشار منجم فحم — ليس مكونا من حفرة واحدة إنما هو سلسلة من الدهاليز المحفورة فى طرف عرق بارز فى سفح التل . وسمك هذا العرق ست عشرة بوصة وأسفل منه يوجد الفحم الذى يستخدم فى المحطة الكهربائية التى تضىء كلم بشار وتدار بها مصانع الأسمنت كما يسير بقوتها قطار السكة الحديد ذهابا وجيئة فيما بين كلم بشار وبريجو Berigaux ، والعجب العاجب أنه يفيض منه ما يسمح بالتصدير إلى أسبانيا التى تبعد عنه نحو ١٠٠٠ ميل وراء جبال الأطلس . ويعمل بهذا المنجم ٤,٥٠٠ عامل مشتغلين بالتعدين وينتج منه نحو ٢٠,٠٠٠ طونولاته من الفحم شهريا . ولكن تغيب العمال عن المنجم مشكلة المشاكل إذ أن العرب بطبعهم جوابون فى الصحارى ، فإذا حصل فيضان فى أحد الوديان أسرع البدو الذين فى حيازتهم هذا الوادى بالتوارث وزرعوه ثم رجعوا إلى المنجم فإذا ما حان موسم الحصاد عادوا إلى الحقل ليجمعوا الزراعة ثم يعودون إلى المنجم وهكذا تجدهم فى تنقل مستمر دواليك بين المنجم والوادى .

وهناك عرق فحم أكبر من هذا العرق ، أكبر منه فى طوله وفى كثافته كما أنه أجود منه نوعا وهذا يبعد عن ذاك نحو ٤٠ ميلا فى الصحراء جنوبا . ولا شك أن إصلاح هذا المنجم واستغلاله سوف يكون له الأثر البعيد فى تلطيف طبيعة الصحراء وتقدمها .

حقول الفحم هذه — ولربما حقل البترول الذى مكث والاس يحاول كشفه سنتين ونصف سنة — هى بلا شك متخلفة عن تلكم الغابات والاحراج التى كانت موجودة فى هذا الاقليم منذ أقدم عصور التاريخ . لذلك أرانى لا أشك فى أن والاس كشف فعلا مادة البترول ولكن مهمته كانت أن يكشف البترول ويكتم الأفواه عن ذكره . لذلك تراه صموتا إذا ما ذكر البترول ثرثارا فى أى شىء غيره مما هو موجود تحت الشمس ، وإنى أخص الشمس بالذكر لأن أحد الموضوعات الأثيرة عنده بالذكر موضوع « الطاقة الشمسية » وليس البترول . وإن تذليل الشمس وتسخير أشعتها لقد يبدو عجيبا فى بريطانيا ولكنه فى الصحراء الشغل الشاغل لأفكار جميع العلماء المقيمين فيها (وما والاس إلا واحد منهم) فانهم يعيشون مغمورين فيها، ويلحظون أنها فى إسراف وضياع مستمر بمعدل ١,٣٥ كيلوات فى الكيلو متر المربع فى الثانية ، وأترك لك أن تجرى العمليات الحسابية لاستنتاج المقادير الضائعة فى تلكم الصحارى الشاسعة .

وقد ردد البعض أخيرا القول بأن الافادة من القوة الذرية الصناعية سوف لا يتضح مجالها الرئيسى فى البلاد ذات الصناعات المستقرة فعلا بل فى البلاد البعيدة عن الطرق المسلوكة — التى لا يكاد يمر بها مسافر — مثل الصحارى لأن حفر بئر ارتوازية واحدة فى الصحراء يتكلف أموالا باهظة فآلات الحفر — وما تحوى من ماكينات تدار بالبترول غالى الثمن والتكاليف تتطلب مبالغ هائلة فى سبيل نقلها إلى حيث يراد استعمالها فى نقط على مسافات قاصية ، أما جهاز الأفران الذرية إذا ما تم تركيبه ، فلن يكون فى حاجة إلى مثل هذه الجهود الباهظة لنقله . وإن جهازا مما يستخدم لتحويل معدن اليورانيم إلى بلوتونيم لاستخراج الطاقة الذرية الصناعية فى أثناء هذا التحويل قلما يحتاج إلى مدد جديد من الوقود الذرى ، ولربما لا يحتاج أبدا وإن طائرة نقل واحدة فى السنة قد تكفى لهذه المهمة البالغة ، لأن قطعة اليورانيم

التى لا تزيد على حجم علبة الثقاب تختزن من الوقود كمية تعادل حمل ١,٥٠٠ عربة سكة حديد محولة الواحدة منها ١٠ طولونات من الفحم أو البترول .

فلنبشر عرب البادية بأنهم سوف يشيرون إلى الشمس قائلين « هذه هى مصدر قوتنا الذرية » . وإن الأحاديث التى لا تنقطع عن القنبلة الهيدروجية تنبهنا إلى أن الشمس - الآن ومنذ ملايين ملايين السنين — مافتئت تحول الذرات الهيدروجينية إلى غاز الهيليوم وفى عملية هذا التحويل تولد من الطاقة ما يعادل آلاف المرات من الطاقة المستخرجة من تحويل اليورانيم إلى بلوتونيم .

ويقول العلماء لو أن علماء الطبيعة صرفوا جهودهم إلى استخدام الطاقة الشمسية مباشرة بدلا من محاولتهم محاكاة الشمس فى عمليات التدمير — لاستطاعوا أن يمهدوا لنا تذليل الشمس وتسخيرها فى انتاج مقادير وفيرة من الطاقة للصحراء .

ولقد جربت طرق عديدة لتحقيق هذا الأمل ، باستخدام المرايا الضخمة لتجميع الحرارة فى بؤرة واحدة وكذلك جربت بعض الأجهزة الشمسية الكيمائية لكن ما زال إنتاجها ضئيلا ، وشاهدت من هذا النوع ذلك الجهاز الذى جربه الإيطاليون فى سيدى المصرى ، من قرى طرابلس لاستنباط المياه به من جوف الأرض، فرأيتهم مضطرين أن يضعوا بجواره آلة تدار بالبترول لتحل محل الجهاز الشمسى فى الليل وعند احتجاب الشمس . كما أننا نشاهد من جهة أخرى — وإن كنا لا نفقه علة ما تشاهده — أن اللون الأخضر فى النباتات آلة شمسية جبارة تقتنص شوارد الطاقة الشمسية photosynthesis وتحول بها المادة الغضة إلى المادة الغذائية ، والعلماء الآن جادون فى درس آلية هذه الخاصة أى خاصة التمثيل الضوئى مستخدمين لذلك المحاصيل الثانوية المتخلفة فى أجهزة الأفران الذرية وكذا النظائر الذرية أو العناصر ذات الاشعاع الذرى . فاذا ما استطاعوا أن يكشفوا الآلية التى بها تختزن النباتات الطاقة الشمسية وتفيد منها فى فترات احتجاب الشمس ، لعلهم يستطيعون حينئذاك أن يخترعوا جهاز تخزين accumulater يدخرون به نور الشمس الوهاج .

وكما نوهت من قبل مسألة توفير الوقود للصحراء لايسبقها فى حاجيات السكان إلا مسألة توفير المياه نفسها . فاذا استطاع العلماء أن يقدموا لأولئك النسوة اللواتى لا هم لهن إلا قطع الأشجار واجتثاث العشب وقودا آخر غير هذا المورد لوضعوا بذلك حدا لهذا الاتلاف الذى هو من أهم عوامل استمرار الصحارى فى الازدياد والاتساع واذا توفرت الطاقة استطاعوا بها أن يرفعوا المياه إلى المستويات الأعلى من مجراها ، فمثلا ترفع مياه نهر النيل إلى سفوح التلال المحيطة بواديه من الجانبين .

ولتوفر أيضا الوقود زهيد الثمن الذى تدار به آلات دق الآبار الارتوازية فى الصحارى إلى الأعماق السحيقة التى توازى طبقات المياه الجوفية وما برح العلماء يعلنون فى اصرار أنهم فى الصحراء يسيرون فوق المياه ، وأنهم لعلى حق فى هذا القول !

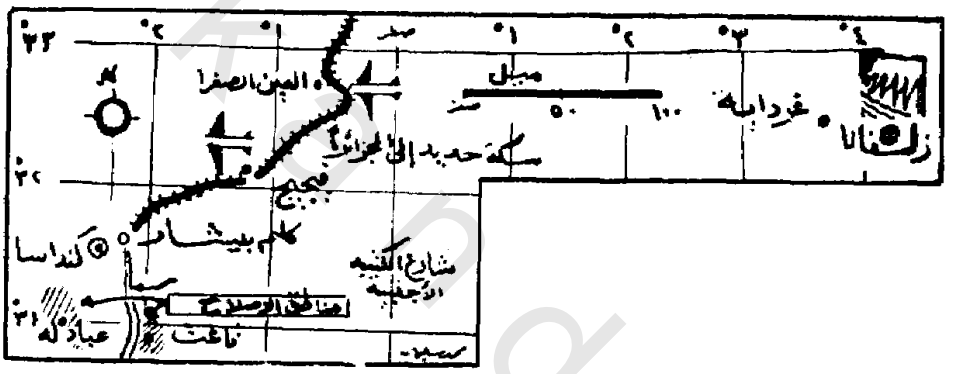

فى زلفانا Zelfana التى تبعد نحو ٤٠٠ ميل شرقى كلم بشار وعلى مقربة من غرداية Ghardaia توجد واحة جديدة ، كأنها جزيرة خضراء فى بحر الصحراء القاحل تروى هذه الجزيرة بواسطة بئر ارتوازى نزل فى باطن الأرض إلى عمق ٤٠٠٠ قدم ، ولقد كان لكشفها أهمية أكثر من فائدتها المحلية إذ أنه ثبت أن هناك بحيرة من الماء العذب مترامية الأطراف تمتد من الأطلس غربا إلى واحة قابس Gabes على تخوم تونس . شرقا . وتسمى الطبقة الحاملة للمياه : بالبحيرة الألبية (أى البيضاء) (١) the Albicnne Nappe التى باعتبارها موردا للمياه العذبة ، لبثت حلما يداعب علماء

(١) نسبة إلى ما يسمى فى عصور طبقات الأرض Ahian Etage وهو قسم من مجموعة العصور الجيرية (المترجم) .

طبقات الأرض طوال نصف القرن الحالى ، ولشد ما كثرت تجاربهم فى سبيل تحقيق هذا الحلم بدون جدوى — حتى عثر أخيراً على المياه فى واحة زلفانا المذكورة ، وقد ثبت من دق الأنابيب فى هذه المنطقة أنه إذا تيسر لإنسان أن يغوص فى أعماق هذه المنطقة من الأرض ، لعثر على مياه زاخرة تكفى لمساحات مترامية فى الصحراء[1] .

ومع ذلك فإن دق الأنابيب إلى الأعماق الكافية يتطلب طاقة أو قوة لآلات دق الأنابيب والبترول الذى يمكن استخدامه لتوليد هذه الطاقة ، كما أوضحنا من قبل باهظ التكاليف فى تلكم البقاع .

فإذا ما توفرت القوة الرخيصة لتوفرت بسبب ذلك امكانيات كثيرة ومن بينها دق الأنابيب للأعماق مثل تلك التى يعملونها الآن للبحث عن البترول ، وذلك فى طلب الماء ولكنها لو عملت فى ظروف عالمنا الحالى لأصبح الماء المستخرج غالى الثمن مثل البترول سواء بسواء .

---

(١) فى أثناء طبع هذا الكتاب تم تفجير أربع آبار عميقة — إحداها على عمق ٦٥٠ مترا — فى بلدان مختلفة من الواحات الخارجة غرب صعيد مصر حصيلتها أربعون ألف متر مكعب من الماء العذب يوميا من المياه الجوفية الواردة من الهضبة الاستوائية — وهذا جزء من العشرين بئرا من هذا النوع قررت حكومة الثورة تفجيرها فى بلدان الواحات الخارجة والداخلة لتوفير الرى لجميع أراضيها الخصبة لتكفى سكانها بل تطلب المزيد عليهم إن شاء الله تعالى (المعرب)

الفصل الثالث

رجل المعجزات فى المستنقعات

و إليك قصة رجل المعجزات فى المستنقعات فهـو الآن يحس بتجفيف المستنقعة و بسحب مياهه من تحت قدميه . و إنها لقصة مشروع هندسى من أشد المشاريع التى عاينتها فى رحلتى إثارة للعجب والتخيل .

ومع ذلك فبقدر إعجابى بالفطنـة والبراعة التى تجلت فى هذا المشروع و بقدر إدراكى لما سوف يعود منه من منافع لا أتمالك نفسى من الشعور بالأسف الشديد على حظ رجل المعجزات الذى لا بد له من أن يستيقظ فى صباح يوم جميل و يصيح فى القوم « من ذا الذى سرق مستنقعى ؟ » .

فى حافة الصحراء الإفريقيـة من جهة الشمال تمتد جبال الأطلس الصحراوية وتنبطح بين هـذه السلسلة وسلسلة جبال التل the Tell Atlas التى تمتد شمالا على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، هضبة الأطلس كأنها الكأس يحيط به طبق من الجبال الشاهقة و يتوسط هذا الطبق « الشط الشرقى » Chot Cherqui وقد أثار حديثى مع مسيو مارسل جوتييه M. Marcel Gautier رئيس مكتب البحوث العلمية التابع لمصلحة التعمير والقوى المائية فى مدينة الجزائر قبل مغادرتى لها جذوة تفكيرى ، لأنه هو المسئـول الأول عن فكرة المشروع ولكن حماستى له اشتدت وتضاعفت حين قابلت م . ك . جيمجلنج M. C. Gaemeghling ذلك المهندس الشاب القائم على تنفيذ المشروع

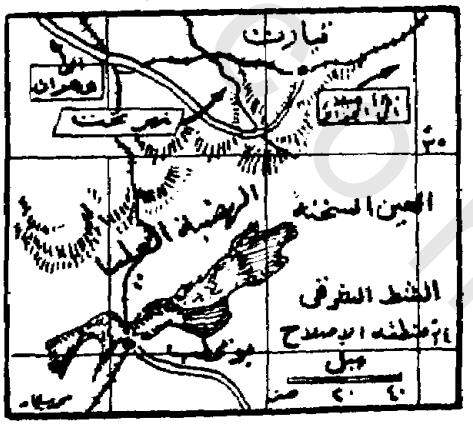

ومسيو جيمجلنج هـذا ورفقاؤه مسيو ج . دريفس M: G. Dreyfus ومسيو

م.ل. لورنس ليسن M. L. Laurence Lesne ومسيوم . ب جويوه M. P. Guillot كانوا جميعا فى رفقتى عند تجوالى فى المشروع للاطلاع عليه .

وكلمة « شط » Chott فى شمالى أفريقيا معناها « المستنقع » و « الشرق » cherqui معناها الشمالى [1] .

و يشاهد حوض هذا الشط على الخريطة كأنه بحيرة تساوى فى اتساعها خمس مساحة فرنسا كلها . ومع ذلك فانها لا تأخذ شكل البحيرة إلا فى فترات قصيرة من السنة وهى موسم الأمطار حيث يخيل لرائيها أنها بحر عظيم ، ولا تكاد مياه الفيضان تنحسر عنها حتى تتحول إلى رمال رهوة ملحة خداعة أما الهضبة المرتفعة المحدقة بها فهى ذلك المرتفع الموحش الذى يسوده الجوع والظمأ .

ولا يوجد فيه من النباتات سوى قليل من العناب أو النبق ومن الحشائش الشوكية التى ترعاها الابل مثل حبق الراعى ذلك الكلأ العطرى الذى ترعاه الغنم والمعيز والحلفاء alfalfa أو نبات الاسبرتو ، التى يجمعها العرب الرحل باقتلاعها من جذورها ، و يربطونها حزما تثقل على ظهور الابل إلى مستودعات الحلفاء المبعثرة على الهضبة هنا وهناك وفيها تهيأ لتصديرها إلى بلاد اسكتلندة حيث يصنع منها الورق

ولا أود أن أعرض على القراء مرة أخرى تجربتى حين أحصرت فوق هذه الهضبة ليلا ، فلقد كان موقفى هو الرعب بأشد معانيه (هذا عدا المخاطرات الطبيعية من السير بالعربة متخبطا فى الظلام وفى طريق مريب) لا سيما حينما كنا نضطر من حين إلى آخر أن ننتظر عربة الجيب التى أقلت بقية رفاقنا المتابعين لسيرنا ، ففى مثل هذا الموقف يتملكنا شعور مقلق بأننا على الدوام فى تربص المتربصين معرضون لمحاصرتهم لنا وكنا نلمح فى الظلام بريق أعين حيوانات لم نتبين أنواعها . فالربوع أو فار الصحراء يثب فى طريقنا قائما على ساقيه الخلفيتين يشبه الكنجارو الصغير ، و يطرق سمعنا

---

(١) فهم المؤلف أن الاتجاه المقصود هو من الصحراء ولكن الصحيح هو the Eastern باعتبار الاتجاه من الغرب أى من تخوم مراكش (المعرب)

حفيف بعض الدويبات وخشخشة الزواحف كأنها تطاردنا وأصوات البدو فى مضاربهم ولعلها على مسافة نحو عشرة أميال منا لكن يخيل الينا أنها تساورنا ، كل ذلك لأن الأصوات فى كأس الهضبة المرتفعة بعيدة المدى . ولعل أشد ما أرهبنا أننا شهدنا نيرانا تعترض طريقنا ولم يكن لنا بد من مواجهتها والاستعداد للهجوم عليها إذا كانت نيران كمين يترصد لنا ، ولكننا ما كدنا نصل اليها حتى تبين لنا أنه لم يكن ثمت أناسى مطلقا ! ولما توقفنا وتأملنا المنطقة وجدناها مجموعة من الشجيرات علقت بها النيران . و بينما نحن نستطلع إذ برز لنا من حالك الليل شبح ملثم لفارس امتطى جوادا أبيض أسرع يخب نحونا ، فأخذنا نستعد لمهاجمته و إذ به شيخ مصادق لنا قدم ليسألنا هل نحن فى حاجة إلى معونته ؟ و بعدئذ فهمنا أيضا معنى شبوب النار فى الشجيرات فان راعيا اعتاد أن يشب النار فى بعض النباتات النابتة فى الصحراء ليصطلى عليها من برد الليل البئيس فاذا اشتعلت النار فى شجيرة أشعل جارتها وهكذا كانت هذه الطريقة أسهل عليه من استئصال الشجيرات وحرقها و إن كان فعله هذا من أسوأ الأمور إضرارا بالصحراء لكننى لا ألوم هذا البائس على فعله لأننى أنا نفسى كنت أنتفض من البرد ، وكلما تذكرت تلك الليلة الليلاء لا أستطيع أن أحكم أيهما كان أشد إهاجة لنفسى أهو سوق عربة الجيب سوقا متخبطا فكانت تترنح مثل الحصان الوحشى وتمايل من حفرة إلى أخرى متراصة كأنها عيون الوجاق وكثيراً ما انكفأت على خرطومها فى الوهاد « أهذه الحال شر أم ساعة راحة الساحرات من ولولة بانشى banshee (وهى الخبيثة التى تولول ناعية من ستموت منهن) ؟[1] .

وقد صادفنا فى وضح النهار فى أثناء عبورنا الشط فصلا غريبا ، إذ قدم زنجى معمم حافى القدمين جاريا فوق المستنقع استوقفتا لكى يبلغنا أمرا من الولى الصالح شيخ الشط أن نزوره لنتناول أقداح الشاى الأخضر معه ، وليس هناك أية مبالغة فى أن نسمى هذه الدعوة الأدبية الكريمة أمرا فإن دعوته للمهندسين المرافقين لنا كانت

---

(١) يشير إلى اسطورة من أساطير الجنيات fairytales ومعنى أنها إذا اطمأنت تآمرت مع الشياطين على شر خطير ! (المعرب).

رجل المعجزات فى السانتقم : مرابط الشط الشرقى
يعقد اجتماعا فى الكهف المنحوت داخل جبل الجبس

الميكانيكى العربى ينزح بمضخته المياه من تحت أقدام المرابط

محراث يستخدم فى جره
القوى البدائية
وهى الحمير

محراث وجرارة تجرها
القوى الحديثة وحدتها
«قوة الحصان البخارى»

بمثابة أمر لا يسعهم مخالفته ، هؤلاء المهندسون الذين نيط بهم سحب المستنقع من تحت أقدام الشيخ الصالح وهو هو المرابط أو رجل المعجزات فى العين السخنة ذو السطوة والسلطان الروحى على جميع سكان هذه المنطقه التى تبلغ مساحتها مساحة مملكة بلجيقا ، لذلك كانت مخالفة أمره خطيرة العواقب .

لذلك لم يسعنا إلا أن جعلنا عربات الجيب التى تقلنا تشق المستنقع متجهة إلى الربوة التى يقيم فيها المرابط بثيابه البيض يحف به إخوانه فصافح كلّ واحد منا بوقار ثم لثم أطراف راحته ، وتلك هى التحية المرسومة التى يستقبل المسلمون بها ضيوفهم من الكفرة ثم رافقنا إلى دار المرابطة ، وهى كوخ صغير مبنى من الطوب المجفف فى الشمس حتى أبيض لونه وكان ضيقاً جداً لا يتسع لجميع رفاقنا .

كان هذا الكوخ هو حجرة الاستقبال الوحيدة فى سلسلة الكهوف المنقورة فى التل الجيرى . ثم دعانا إلى كهف فسيح ، يسمونه — كهف التفكير الصامت — وفيه قدم إلينا الشاى . وقد كانت الحفلة متقنة فصبوا الماء المغلى فى ابريق الشاى وأضافوا إليه أوراق الشاى الأخضر و بضع ملاعق من السكر ، ثم صبوا قليلا منه فى كأس وذاقوه ، ولكنه أبدى عدم استحسانه له لذلك أعاده إلى الأبريق وكرر هذه العملية عدة مرات ، وقد كان العمل المتكرر هو كل ما يبرهنون به على أنهم لا يدخرون جهداً فى سبيل الاحتفاء بالضيف وأخيراً استحسن مذاقها ووزعها علينا ، فوجدناها قليلة السكر لا نكاد نسيغها ، بل نتجرعها كما نتجرع الدواء ، لا سيما وقد توقعنا من قبل أنهم لا يكتفون بكأس بل لا بد من ثلاث للضيف .

وقد أضاف للقدح الثالث شراباً نعناعياً فصار حلواً كالشراب الصرف فضلا عن عطريته فكأن الواحد منا كان يشرب ذوب اللبان الأمريكي . وفوق ذلك قضت قواعد الأدب أن تترشفه فى رشفات قليلة بصوت موسيقى ، فكنا فى هذه اللحظة فرقة موسيقية يقودها السيد المرابط . وتناولنا مع الشاى فطائر مغموسة فى السكر .

و بعد هذه المجاملة الصامتة ، تبادلنا عبارات الترحيب والتحية المعبرة عن أجمل المعانى ، ولقد فهمنا من الترجمان العربى الذى نقل كلامنا للسيد المرابط أنه أضاف من عنده أننا نحمل إليه تحية جميع الأمم المتحدة و بدوره رجانا السيد المرابط أن ننقل عنه تحياته للأمم المتحدة مقرونة بدعواته وتبريكاته ، وما بلغنا هذه النقطة فى الحديث حتى تخفف السيد بعض الشىء من تحفظه ووقاره فدعانا لمشاهدة جميع تشعبات كهوف منزله بما فى ذلك كهف تعبده وآخر لقطته « بوسى بوسى » . ولما كانت هذه الدهاليز منقورة فى حجر الجبس الذى قذفت به إلى السطح العين الحارة ثم جمد واستحال إلى صخر وقد كان جو هذه الدهاليز يميل إلى البرودة صيفاً و إلى الحرارة ليلا وشتاء فلم يبق أى أثر من تقشف سكان الكهوف في العصور البدائية حول هذا المخبأ العصرى المريح .

ثم صحبنا إلى خارج الكهوف حيث أطلعنا على خيمته المصنوعة من و بر الجمال وهى سرادق منخفض الارتفاع تسكنه زوجاته الكثيرات المحجوبات وراء ستار كثيف مع أولاده العديدين .

ولا بد لى أن أذكرك بأن هذا التجوال كان فى مستنقع فسيح فى منخفض بين التلال البالغ ارتفاعها ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . ففى فصل الأمطار يتدفق السيل المنهمر من أعالى الجبال المحدقة بالمستنقع من جميع الجهات ولكن لا تلبث هذه المياه المتدفقة على سطح الشط أن تنحسر فى بضعة أيام قليلة ، فما نبأ هذه المياه المنصرفة ؟

قام مسيو جوتييه N. Gautier بمسح هذه المنطقة من الجو . فتبين له أن منطقة الشط هذه تشبه مرجلا كبيراً تتبخر منه المياه بفعل حرارة الشمس ، كما تبين له أن عملية التبخر هذه لم تكن مقصورة على المياه السطحية سالفة الذكر بل كانت تعترى مياه أخرى تنضح فى طول العام من الصخور المنخفضة عن مستوى الشط بنحو ٢٠٠ قدم .

وإن عمليات الحساب الدقيق — أو على الأقل التقديرات التقريبية — يمكن أن تدل على مقادير المياه التى ذهبت سدى بالتبخر السطحى ، وعلى مقادير المياه التى امتصتها القيعان ونزلت بها إلى طبقات المياه الجوفية الارتوازية ، فبأسقاط مقدار نفترضه لما يذهب بعامل التبخر السطحى فى الجبل ومقدار آخر يسير نفترض أنه يستخرج بواسطة الآبار السطحية المبعثرة هنا وهناك بما فى ذلك العين السخنة نفسها ، لابد أن تصير مقادير المياه الباقية الغائرة فى حوف الأرض ، إلى خزان واسع النطاق يمتلىء سنوياً بنحو ألف مليون يارده مكعبة ، وأن الكثير من ذلك ينتح فى صورة بخار الماء المخالط للجو .

هذا الموقف يتحدى العلماء و بخاصة ذوى الأفهام والتخيل منهم و يعرض عليهم سؤالا مهماً وهو « ما السبيل لاسترجاع مقادير المياه الضخمة التى تتبخر سنويا من هذا المرجل وما كيفية الإفادة منها ؟ »

والمياه السطحية فى الشط لا فائدة ترجى منها لأن التربة ملحة جداً وتذقل ملوحتها هذه إلى المياه المستقرة فيها ، وأما المياه النازلة إلى الأعماق الإرتوازية فهى عذبة نسبياً . ولما جبت الشط سالكا طرقه المخيفة فى عربة الجيب التى كانت فى تصرفى مبتدئاً من « العين السخنة » أمكننى أن أشاهد أربعين أنبوبة من الأنابيب المدقوقة لأستخراج المياه الإرتوازية فثبت وجود المياه العذبة فى البحيرة الأرضية العميقة كما ثبت مقدارها العظيم وشاهدت المياه تفيض منها على سطح أرض الصحراء . و يقدرون أن المياه التى تتبخر من تلك البحيرة الأرضية الهائلة تعادل سنويا ست بوصات من المطر وأن النضح الداخلى المستمر طول العام عن طريق الصخور المساميه يبلغ فى المتوسط ثلاثين يارده مكعبة فى الثانية الواحدة ، واستنتج خبراء المياه من ذلك أنه فى الإمكان أن يستخرج من هذه المياه العميقة ما يبلغ عشرين أو أربعاً وعشرين يارده مكعبة فى الثانية على مدى العام ، ولا شك أن هذا المقدار من المياه فوق هذه المساحة ليعتبر مقداراً هائلا ، ولكى يتاح لنا فهم هذه الخطة أو المشروع يجب علينا أن نلم بجغرافية بلاد الجزائر ، فإنها منقسمة إلى خمس مناطق : (١) السهول الساحلية (٢) سلسلة جبال الأطلس الشمالية (٣) السهول المرتفعة أو كما تسمى الهضبة المرتفعة (٤) سلسلة

جبال الأطلس الصحراوية (٥) الصحراء الحقيقية أو الداخلية .

أن الهضبة المرتفعة ممتدة بين بلاد مراكش و بلاد تونس و إنها فى جملتها منطقة نبات الحلفاء ومراعى الأغنام . والحلفاء هى نبات برى أي طبيعى وأنواع الغنم فى هذه المنطقة من الأنواع الهزيلة ، وجميع ماشية البدو ذات لون القماش الكاكى هى الأخرى عجفاء ، لأنه فضلا عن فقر المراعى ، يتحتم على هـذه الماشية أن تقطع مسافات كبيرة فى يومين أو ثلاثة بين كل عين ماء والتى تليها .

و يستخدم القوم طرقا بدائية فى زراعة الحبوب الغذائية ، وليست محاولاتهم مشجعة — لتعرض الزراعه غالباً للجفاف ، حتى أن محصولا واحداً على الأقل من كل خمسة محاصيل تكون نتيجته فشلا تاما . لذلك كان أحد الأغراض التى يهدف إليها منظمو مشروع الشط الشرقى أن يدبروا المياه العذبة لقطعان الغنم والماشية وذلك لتوفير الآبار العذبة أو العيون على مسافات قريبة محتملة التنقل فيما بينها وقد تم فعلا دق ٤٠ بئراً ارتوازياً كادقت أنابيب فحص أخرى ليقوم علماء المياه بالتجارب بواسطتها لكى يجمعوا المادة العلمية التى يعملون على ضوئها لتوفير المياه للعرب الرحل و إذا تم دق آلات رافعة أخرى زيادة على الموجود منها الآن أمكن تعميم المياه العذبة فى أنحاء الهضبة كلها .

أما الغرض الثانى فهو خطة واسعة النطاق ، إذا تمت قد تغير من طبيعة بلاد الجزائر كلها ، وذلك بمهاجمة « البحيرة » العظمى المستقرة فى باطن الأرض ثم بنقل مياه ذلك الخزان الهائل من المياه العذبة بإنفاق فى الجبال إلى المنطقة الساحلية المنخفضة وهى السهول الخصبة الواقعة فى سفوح جبال الأطلس الشمالية والواقعة بين مدينة الجزائر ومدينة وهران والتي هى الآن جافة شبه جرداء مع أن تربتها خصبة ولو توفر لها الرى النظامى على مدى العام لزادت المحاصيل فيها أضعافاً مضاعفة .

وتمت مشروع آخر مترتب على جغرافية هذا الإقليم الساحلى ، ذلك لأن معظم الأراضى الخصبة الساحلية هى أدنى من مستوى ٦٠٩ قدم فوق سطح البحر فى حين أن مقادير المياه المتجمعة تحت أرض الشط تعلو نحو ٢ر١٠٠ قدم فوق سطح البحر وعليه فمستوى المياه أرفع من مستوى الشريط الساحلى بنحو ١ر٥٠٠ قدم مما يجعلها

صالحة لتوليد قوى كهربائية كافية لأن تزود بلاد الجزائر بجميع ما يلزمها من هـذه القوى ، والتوسع فى هذا المشروع سيجعل منه جهازاً هائلا يربط أنحاء البلاد المختلفة وهكذا تسترد الهضبة العليا ما تعيره لغيرها من مياه فى صورة قوى كهربائية .

ولقد جئت الشط لأعاين مراكز التجارب والبحوث العلمية التى يقصد منها ضبط المشروع وجعله فى غاية الدقة حتى « لا يكاد ينفذ منه المـاء » كما شاهدت المعامل العلمية المقامة فى واحـة العين السخنة . وهذه مدينة طافية يصدق عليها اسم « السفينة المدينة » ذات البيوت الجبلية المشذبة عدا مبـانى الإدارة والسكان وهى التى شيدت لتـكون مستعمرة معدة إعـــداداً حسناً لإسكان أولئك الرواد من رجال العلوم .

وقد تم فعلا ربط بئرين ارتوازيتين فياضتين بالماء بالمحطة المائية التى هى جزء من المرحلة الأولى من مراحل الخطة الـكبرى المصممة على أن تتم فى مراحل عديدة . كل مرحلة منها مستقلة بذاتها ولـكنها فى النهاية مرتبطة بعضها ببعض وستبلغ جملة تكاليف المشروع ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات .

فالمرحلة الأولى هى عمليات تجفيف المياه على امتداد أنفاق مفتوحة أعدت لذلك من قبل ذات مضخات متتابعة من مسافة إلى أخرى للمساعدة فى رفع المياه وقذفها فى مياه نهر التحت الأعلى A Taht وهو نهر متقطع تجرى مياهه إلى المنخفضات الشمالية الساحلية ، والعمل قائم الآن فى المكان المعروف باسم « الدوق أوسس » Usis le Duc ليتلقى ويحجز مياه نهر التحت وهو فى الوقت نفسه أحـد مجموعة الخزانات التى ستضبط المياه المرفوعة من الشط .

والمرحلة الأخيرة هى عمل أنفاق فى داخل الجبال بحيث تصل إلى طبقة مياه الآبار الإرتوازية — وهى الواقعة تحت طبقات أرض الشط — وتصرفها فى اتجاه شمالى ويترتب على هذا التحويل عدم تمكين الماء من النضح إلى أعلى حيث يوجد مرجل التبخير الذى يبددها فى الجو ، وأعنى به الشط الشرقى نفسه ، ولـكنها مع ذلك سوف ستقوم بصرف جانب فقط من المياه الواردة سنوياً إلى هذه الطبقة ، لأن المبالغة فى الصرف سوف تؤثر على مصادر العيون الطبيعية المتفجرة فى الوقت الحاضر .

وفى الحقيقة كل ما سوف تصرفه هذه الأنفاق بعد تمامها هو المقادير التى تذهب الآن هباء بالتبخير ومن ثم يتحقق مشروع لأمداد منطقة واسعة بالمياه والقوى يقوم فقط على ضبط النضح الأرضى .

وتجاه هذا المشروع مشروع آخر يريك كيف يعمل العلماء الفرنسيون بتخيل متوقد وابتكار واسع هو ذلك المشروع الذى شاهدته فى ريلزان Relisane فى السهل الساحلى .

فهنا يوجد مستنقع فى مستوى البحر فلا يمكن الإفادة من مساقط مائه لاستخراج القوى الكهربائية كما هو الحال فى مستنقعات الشط المرتفعة عن سطح البحر بنحو ٢١٠٠ قدم و إنه إقليم عظيم الإتساع ، تغطيه حشائش نبات الغاب. مياهة للبعوض الخطير ، يفيد فى استصلاح تربته وتحويلها إلى أرض خصبة زراعية منتظمة ، و يستمد هذا الإقليم مياهه من المياه الناضحة من الطبقات الأرضية فى التلال المحيطة به ، ومشروعهم الآن قائم على دق آبار ارتوازية عديدة تسحب هذه المياه من جوف الأرض فلا تنضح إلى أعلى فى المستنقع ثم تحول لرى بقاع خصبة فى حاجة إلى المياه هذا من جهة ومن جهة أخرى فالمستنقع نفسه وقد قطع عنه الماء يجف بالتجريد و يتحول إلى أرض خصبة زراعية .

وقد شاهدت من أدوات هـذا المشروع آلة عجيبة لدق الآبار الارتوازية إلى أعماق ٣٠٠ قدم ، الجديد فيها أنها تحوى مثقابا boring- bit ذا أسنان من معدن تنجستن tungsten [1] يستطيع أن ينقب عموداً من الصخر عرضه متر كامل ، ثم تعمل كما يعمل ملقاط طبيب الأسنان الماهر فهذا يقتلع الضرس العنيد وذاك يقتلع الجدار المنزوع يشبه عموداً من الحجر الجيرى فى آثار كورنته .

وعلى حافة الهضبة المرتفعة من جهة الجنوب الغربى تنحدر الجبال إلى أن تهبط إلى واحة «العين الصفرا — Ain Safra» وعندها فى ليلة اكتمال البدر فى الساعة التاسعة والنصف ack emma [2] قابلت الرجل الأبيض ، وكانت مقابلتنا بقرب موقد ، التف حوله

---

(١) المعدن الذى تعمل منه راتينة بعض المصابيح الكهربائية (المعرب)

(٢) لعلها تحريف من العربى « على القمة » .

ودار بينهم حديث جدى وهو لهم بصفة خاصة سار ومنشط — والذى أداره شخص يشبه الشيخ ولا يتميز عنه إلا باعتناقه الصليب ، فاستطعت أن أفهم من هذا الفارق فقط شخصية الرجل وأنه هو « الأب الأبيض » .

هذا هو الاجتماع الذى تمنيته من زمن بعيد تأخر بسبب رداءة الجو عدم الملائم للطيران فوق جبال الأطلس . وقد حاولنا مرتين عبثاً أن نلتقى به فى الصحراء وأخيراً كان هذا اللقاء فى العين الصفرا .

وعند ما غادر قطار الصحراء محطة العين الصفرا هذه شددت على نفسى حتى أدركت الأب الأبيض وجذبته بجانبى وكان معتزماً السفر إلى الشمال لينقذ طائرته المحصورة فى الجبل و يطير بها إلى جريفيل Geryville فانتهزت الفرصة لأعلم منه المزيد عن أبرشيته الصحراوية ، فمكثنا فى حديث لا ينقطع طول الليل فى طريقنا الى مدينة الجزائر ، وهناك كان مقرراً أننى آخذ الطائرة الى تونس حيث أبدأ المرحلة التالية من مراحل رحلتى الطويلة

الفصل الرابع

استعراض أطوار التاريخ من عربة ترام

تسير بين مدينة تونس وقرطاجة عربات الترام ، ويستطيع راكب احداها فى خلال ثلاثين دقيقة أن يستعرض تاريخاً قديماً إلى ٣٠٠٠ سنة ، هذا بشرط أن يرافقه رجل مسيو شارلى سومانى M. Charles Saumagne فمثله يستطيع أن يقنعك بأن قرطاجة الحالية تخفى وراء مبانيها العصرية الأنيقة وقصورها البديعة وضواحيها الهادئة تاريخ تلك المدينة العريقة فى التاريخ التى درست وأمحت ولم تبق إلا سيرتها . ومسيو شارلز سومانى كان لقاؤه مما أسعفنى به « الحظ » نعم هو « الحظ » لأن اسمه لم يكن مذكوراً فى جدول رحلتى المرتب من قبل ، أما أن حظى لسعيد بلقائه فلأنه كان ثقة للغاية فيما أردت أن أعرفه من المسائل ولأنه موهوب ذوقا غاليا Gallic فكها للغاية ، وليست ثمت نعمة فى مرحلة الصحراء أعظم من رفيق يجيد الفكاهة ، أما مركزه فهو المفتش العام للأدارة فى حكومة تونس ، والرئيس الأعلى الدائم للموظفين المدنيين ، وكان يسعفنى كلما وجدنى فى ورطة أو صعوبة ما ، ولقد رتبت لى الإدارة برنامجاً للرحلة يلزمه من الزمن ثلاثة أضعاف ما كان محدداً لى فى هذا الجزء من الرحلة ، فلما بثثت شكواى له نحّى أوراق مكتبه جانباً وقال لى « سأرافقك بنفسى » .

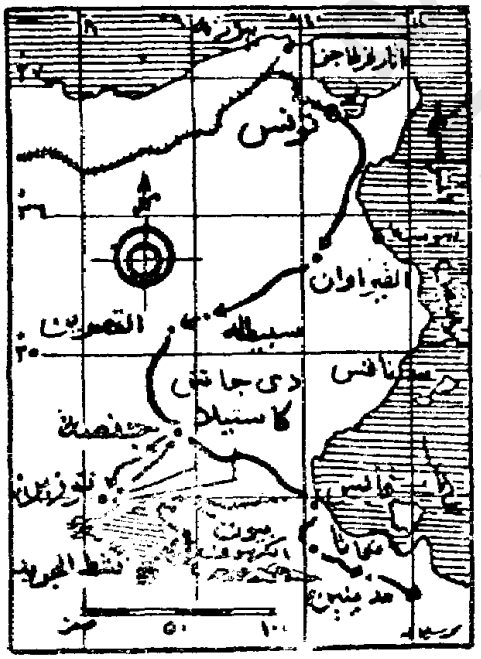

وقد نحا نحوه مسيو تكسيرون M. Texirent كبير مفتشى مصلحة الرى ومدام كلود ألين الموظفة بدار المقيم و بمساعدة هؤلاء الثلاثة من الرؤساء الحازمين استطعت أن أقوم بالبرنامج كله فى ثلث الزمن المحدد له .

ومن حسن الحظ أن مسيو سوجانى كان عالماً مهتما جداً بالآثار ، يفهم مشكلات الصحراء — لا سيما فى تونس — حق الفهم ، ومن الثقات فى تاريخ مدينة قرطاجة القديمة ولا ريب أن الأحداث التى وقعت منذ ٣٠٠٠ سنة لها أقوى الأثر فيما هو حادث الآن وفيما سوف يحدث فى المستقبل .

هكذا صارت نزهتنا إلى قرطاجة أشبه شىء بنزهة قصيرة إلى هامبستدهيت أو هامبتون كورت[1] فبتلويحه من يد مسيو سومانى استطاع أن يصرف أنظارنا عن قرطاجة الجديدة التى هى مقر نائب الجمهورية الفرنسية وجديرة بأن تعتبر مصيفاً بديعاً على ساحل البحر الأبيض المتوسط لكنه صرفنا عنها وحول أبصارنا إلى قرطاجة القديمة ، وكان علينا لنكشف عن تاريخ قرطاجة الذى يرجع إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الآن أن نتخذ طريقنا خلف شوارع المدينة العصرية ونتقدم حتى نشاهد بين بيوت إحدى الضواحى مقابر الشهداء من أطفال الفينيقيين ، متوارية خلف هذه البيوت وهذا هو كل ما بقى من أطلال الفينيقيين فى هذا الإقليم . ذلك لأن الرومان عندما مسحوا المدينة العريقة من الوجود جاءوا بمحراث وشقوا به أطلالها رمزاً لمحوها محواً تاماً ، فقضوا بعملهم هذا على امبراطورية كانت موجودة منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وعندما وفد بعض أهالى صيدا من الشرق الأدنى واستوطنوا مكانها القديم متخذين منه محطة لتجارتهم وأسسوا مدينة قرطاجة سنة ٨٥٠ ق . م والذين قاموا بتأسيسها هم المهاجرون من مدينة صور بقيادة اليسا Elisse التى كانت فارة من طغيان شقيقها بجماليون Pygmalion ، واليسا هذه هى المعروفة فى تاريخ الأساطير

---

(١) هما نزهتان قريبتان لسكان لندن (المعرب)

وفى شعر فرجيل Virgil فى قصيدته الإينية Aneid[1] باسم «ديدو» أى «المهاجرة» ومن ثم كان لابد لهذه الامبراطورية أن تصطدم مع رومة الواسعة المطامع ، وكان لا بد من تدمير قواها الحربية والتجارية فى الحربين الأولى والثانية البونيتين ولكنها الحرب الثالثة البونية هى التى كانت تعنينى فى رحلتى .

ذلك لأنه عندما زال التفوق البحرى لقرطاجة ، وتلاشت وسائلها التجارية حولت وجوه نشاطها ومشاريعها إلى الزراعة ، وركزت جهودها فى تحسين الزراعة بداخلية البلاد ، وأخيرا كان فى توغلهم السلمى فى داخل بلادهم المتأخرة فى الزراعة علة القضاء عليهم فى المستقبل (نعم إنهم كانوا مزارعين مهرة ، وطرقهم الزراعية هى التى ما فتئت النماذج المتبعة لدى الرومان واليونان الذين اتبعوها قرونا عديدة) فقد حدث أن لجنة تحقيق رومانية ذهبت إلى قرطاجة بقصد الإصلاح بين قرطاجة وجارتها نوميديا Numidia ، وكان من بين أعضائها كاتو الأكبر Cato فشاهد الرخاء والسعادة مرفرفة على قرطاجة بسبب نجاح زراعتها فتأثر من ذلك فأقسم أن يفنيها من الوجود ثم قال كلمته المأثورة فى مجلس السناتو Delenda est Carthago ومعناها « فلتدمر قرطاجة » قال هذه القولة وهو يلوح بعنقودتين .

ولم تكن قرطاجة فى هذا الطور ذات قوة حربية تأبه لها رومة لكنها أصبحت ذات خطر اقتصادى بسبب ما وصلت إليه من خصب ونماء هدد كيان المزارعين فى إيطاليا الذين بدأوا يهتمون بالزراعة فلا بد إذا من إبعاد قرطاجة تلك المنافس القوى من طريقهم . أو بصيغة تهكمه « أولئك الذين يعيشون من ثمرة المحراث لا بد أن يهلكوا بسكة المحراث » وقد كان هذا هو السبب المزعوم لقيام الحرب البونية الثالثة وهذه مأساة هتلرية قديمة .

وقد وصف سومانى برشاقة تمثيلية الأيام الأخيرة من حياة الفينيقيين فى قرطاجة وختم الوصف ببيان كيف إن الأمهات المحاصرات فى هيكل أشمون Esmun فى قمة التل قذفن بأطفالهن من وراء أسوار الحصن إلى الهاوية المستقلة بالنيران قبل أن يقضين نحبهن .

---

(١) قصيدة فرجيل فى الاشادة ببطولة الأمير الطروادى «إنى Ence» وفرجيل نفسه هاجر إلى ايطاليا فى عصر القيصر « أوكتاف » (المعرب)

ولما وصل يوليوس قيصر فى مطاردته للبقية الباقية من أنصار بومبى إلى مدينة قرطاجة وجدها ما زالت أطلالا خربة تضم التلال الباقيـة من الأصل البونى (أى الفينيقى) فقرر أن يعيد عمارتها و يجعلها مستعمرة إيطالية فرجعت فى حكم القياصرة إلى ما كانت عليه من فخامة وعظمة . وما الأطلال التى نشاهدها اليوم إلا أطلال قرطاجة الرومانية بمدرجاتها ومعابدها وحماماتهـا وقصورها وهـذه بدورها عانت الدمار من الفاندال (برابرة أوربا) ثم ليعيد عمارتها مرة ثالثة بلبيزاريس Blisarias وخاتمة المطاف حين قضى عليها قضاء مبرما القائد العربى حسان [1] فى عام ٦٩٧ م .

ولم يقف سوء طالع قرطاجة عند هذا الحد ، فإنها نهبت فيما بعد فى القرون المتتابعة بل « أكلهـا اللصوص » كما يأكل المتوحشون لحم البشر ، وما ذلك إلا بقصد نقل عمدها والصالح من عمارتها إلى عمارة المدن الجديدة فيشهد الباحث فى مدينة القيراوان الاسلامية المقدسة ومدينة اسبيطلا [2] Sbei tla عمداً فخمة من يونانية ورومانية أو من الرخام والجرانيت المصرى .

كما يمـكنك أن تعثر على شىء منها فى بعض المبانى الأوربية العظيمة مثل برج بيزا المائل . هذا لأن البحر متصل بأسس قرطاجة القديمة فكان من السهل على السفن أن ترسو على الساحل بقنطرة من الخشب المتين ، وعلى هـذه القنطرة تختلس وتدحرج عظمة رومة المجيدة .

وقد دأب التاريخ — وهو فى أصوله من وضع الرومان أن يعتذر عن البـلاء والمحن التى نزلت بقرطاجة بأن يعزوها إلى عواقب تضحيتهم بالقرابين البشرية للآلهة (و ينحو هـذا النحو المؤرخون الذين يدافعون عن الـكنكستيدورز — Conquistadors الغزاة الأسبانيون) فيما ارتـكبوا من فظائع ضد الأزتيين Aztecs سكان المـكسيك الأصليين فنقرأ عن الطقوس الوحشية فى قرابين الفينيقيين لملكهم أو كما كانوا يسمونه - بعل أمون ملك . وعن أهـالى قرطاجة أنهم وضعوا أطفالهم بين ذراعيه البرنزيتين ثم قذفوا بهم واحداً تلو الآخر فى تنور الضحايا ولشد ما فعلوا

---

(١) هو حسان بن النعمان سنة ٧٧ هـ (الأمامة والسياسة) (المعرب)

(٢) هكذا كتبها ابن خلدون فى مقدمته (المعرب)

ذلك بحماسة وتعصب ذميم . ولكن مسيو سومايى — تحدى فهم التاريخ بمثل هذه الكيفية وذلك بالمشاهد فى مقابر الأطفال الموجودة أطلالها خلف إحدى ضواحى قرطاجة ، فهناك فى خمس طبقات من الحفائر الجرار التى يقال إنها كانت تحوى عظام الأطفال حديثى الولادة ورفاتهم التى طلبها إلههم من جميع الأسر ، ففى الطبقات السفلى التى ترجع إلى أقدم عصور القرطاجيين يستطيع الباحث أن يميز العظام الآدمية تمييزاً واضحاً لا يساوره الشك ، ولكن فى الطبقات العليا ، وهى المعاصرة للزمن الذى صب فيه الرومان طاس غضبهم على قرطاجة ، احتوت الجرار على عظام ورفات طيور وحيوانات أخرى ، فلا بد أن القرطاجينيين كانوا قد ترقوا وقتئذ وصاروا يحبون أطفالهم أكثر من حبهم لآلهتهم المتعطشين للونوغ فى الدماء . فإذا ما رجعنا من مقبرة الأطفال تسلقنا تلا مشرفاً على قرطاجة لنشاهد مقبرة أخرى تلك هى مقبرة الجنود الفرنسيين الذين ماتوا فى الحملة التونسية فى الحرب العالمية الثانية فكنا فى مفرق خطير يبين معالم التاريخ ، اذا نظر الانسان أسفل منه شاهد أطلالا عانت ما عانت من التدمير والفساد نحو ألفين من السنين ، واذا ما أدار وجهه إلى الناحية الأخرى فوق الأراضى السهلة الممتدة الى التلال شاهد هناك نوعا آخر من الافساد ذلك هو افساد التربة الزراعية .

والطريق الى مدينة تونس تخترق أرضاً صلبة كانت فى حين من الدهر خليجاً من البحر والذى كانت قرطاجة بالنسبة اليه ليست رأساً جبلياً كما هى الآن بل شبه جزيرة ولكن الطمى الذى تحته وتجلبه العوامل المختلفة ردم هذا الخليج أو الخندق الطبيعى .

وعند مغرب الشمس ، حين سقطت الأشعة المغربة على السهل المنبسط شاهدنا عجبا ، شاهدنا آثار تخطيط الحياض الزراعية الرومانية لكأنها ظلال للرسوم القديمة تلك الحياض التى كانت تحيط الآلاف من فدادين القمح والشعير .

وقد غادرت جماعتنا فى منتصف الليل مدينة تونس لنواصل رحلتنا إلى داخلية أراضى الأقليم التونسى . التى كانت تؤدى بنا إلى مدينة القيراوان تلك المدينة الإسلامية المقدسة — و إلى سبيطله وهى المدينة البيزانطية المفقودة ومنها إلى وادى

القصرين مستودع ذكريات الإخلاص والوفاء فى خلال الحرب العالمية الثانية ثم إلى حديقة هيسبيريدس Hesperides وأخيراً إلى كهوف مساكن مطماطا Matmate .

وقد انتهى بنا الجزء الأول من رحلتنا وقد قضيناه فى بقية الليل الى رأس بون Cape Bon الضيق كأنه عنق الزجاجة والذى فيه حوصرت جيوش المحور فى تلك الحملة الحاسمة التى كسبت شمالى أفريقيا .

وأصدق القارىء القول بأنه حين كان مسيو سومانى يصف هذه المعركة جولة جولة كنت منشغلا عنه بانتظار طعام الأفطار أكثر من إصغائى الى وصفه القيم . ففى تباشير الصباح وقفت بنا العربات فى احدى القرى العربية أمام دكان مضاءة بالمصابيح تشبه دكاكين السمك والبطاطس إلا أن ما كان يقلى فيها لم يكن سمكا ، وقد جلس فيها رجلى عربى جلسة البوذا Budha على مذبح عال فى جو عبق بالدخان ولكنه لم يكن دخان البخور بل دخان زيت الزيتون وعلى يمينه وعاء العجين الغليظ ومن بين يديه مقلاة مملوءة بالزيت المغلى يطهو فيها الرجل الفطائر . وهى قريصات يقذف بها الرجل فى الزيت المقلى ، ثم يجللها بمسحوق السكر ويلفها كما يلف السمك فى قطعة من ورق الصحف العربية . ولقد أكلنا هذا الطعام غير المقبول — لأنه لا يفصله عن حبر الطباعة شىء — أكلناه بشهية ثم انتقلنا إلى مقهى حيث غسلنا أفواهنا من الحبر بفناجين من القهوة الحلوة كأنها الشربات الصافية وإنى للآن كلما تذكرت هذه الأكلة ينتابنى الغثيان ومع ذلك ففى وقتها فى تونس أقمت عليها طول اليوم .

وعلى مسافة ٨٠ ميلا جنوبى مدينة تونس وصلنا إلى قرية انفيدافيل Enfidaveille وهو الاسم الذى شاع وتردد ذكره فى البلاغات الرسمية فى الحرب الأخيرة ، وهى بلدة بعيدة عن الساحل غربا مناخها أقرب إلى الجفاف منه الى الرطوبة يبلغ متوسط ما يسقط فيه من المطر سنويا ١٠ بوصات يتخللها فترات جفاف طويلة ، وهذه هى منطقة أسوار الكاكتس Cactus أو التين الشوكى الذى هو بمثابة سياج يقى الزروع من فتكات الرياح ويتخذ من أوراقه اللحمية السميكة علف للغنم والماشية

واذا أمحلت المحاصيل اتخذ الناس من هذا التين غذاء أصليا بدلا من القمح وغيره ومعظم الأراضى هنا تزرع بعقد يسمونه « المحاصة » Makarsa Conrraet وهو عقد يتفرع من عادات مرعية منذ عهد الأتراك[1] ، وهو صورة من صور المشاركة على المحصول . وكيفيته أن يقول مالك الأرض للفلاح العربى « ازرع هذه الأرض بشجر الزيتون » والمعلوم أن شجر الزيتون لا يثمر قبل ١٥ سنة من غرسه ، ففى خلال هذه المدة يقوم الفلاح بفلاحة الأرض ويزرع خلال أصول الأشجار شعيراً أو غيره من المحاصيل ، ويمده مالك الأرض بسلف أو نفقات مالية حتى يكمل نمو الشجر بعد ١٥ سنة ويصبح حديقة أو بستانا من الزيتون ومن ثم يتقاسم المالك والفلاح ثمارها .

ولقد شققنا مفازات شاسعة أشار إليها مسيو تكسيرون Tixeront قائلا كانت هذه الأراضى خصبة وصالحة وكان يجب أن تبقى كذلك لولا أنها أخرجت من التداول نتيجة لقواعد الوقف فى الإسلام وهو يقابل Mort main التى تجيز الإيصاء بالأرض للكنيسة بشرط عدم تداولها ومثل هذه الأراضى التى يطلقون عليها « أرض الله » هى الأرض الشائعة بين جميع الرُّحَّل . وهى إحدى المشكلات المسببة عقم الأرض فى شمالى أفريقيا لأنها تحول دون التفرغ لخدمتها وإصلاحها وتجعل معظمها يبقى بدون زراعة مطلقا فيئول لى مراعى ضئيلة[2]

ثم وصلنا إلى « القيراوان » قرب الظهر ، فانصرفنا الى السوق المكتظ بالإبل والغاص بالحمير والمختنق من ازدحام الناس والشحاذين ومع ذلك فقد تناولنا فيه الفطائر وتجرعنا « حبر المطابع » ثم غسلناه « بشربات » القهوة ! والقيراوان هى احدي المدن المقدسة عند المسلمين فيها نحو ٥٠٠ مسجد ، الكثير منها زوايا موهوبة لأضرحة الصالحين أو الأئمة الإسلامية وبعضها فخم ومتسع ، وأعظمها جميعاً مسجد

---

(١) أصله فى الشريعة الاسلامية « المزارعة » والمساقاه » (المعرب)

(٢) وهذه العلة هى التى حدث بمصر فى عهد الثورة إلى إلغاء الوقف الأهلى وهذا من أهم ما قامت به للاصلاح الاجتماعى والزراعى (المعرب)

« عقبة من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم » المهاجرين (وكانت هجرة النبى عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢ م وقد اتخذت الهجرة أساسا للتقويم الهجرى) .

ويروى إنه لما قدم عقبة فاتحا لشمال أفريقيا على رأس جيش من الفرسان نزلوا الصحراء القاحلة وضربوا خيامهم فيها ، احتج عليه رجاله بعدم وجود المياه فقال لهم عقبة « لا بد لنا من النزول هنا بل علينا أن نؤسس فى هذا المكان مدينة ، وهذه هى إرادة الله تعالى » . فأعادوا احتجاجهم بأن « هذا المكان ليس فيه ماء نشربه ولا خشب ولا حجر نبنى بهما المدينة » فأفحمهم عقبة بقوله « سيرزقنا الله ما نحتاج إليه » . وسرعان ما رجع فى الغد كشاف ينبىء بأن كلبا من كلاب الصيد كشف بئراً (شُدَّ إليها جمل يدور حولها ويخرج الماء ، وما زال الماء يتصبب منها) ثم فى اليوم التالى عاد الكشاف وأنبأ بأنه بعد عبور المرتفعات القريبة قد عثروا على غابة وعلى حجارة تنساب عن المرتفعات » ونقطة الضعف فى هذه الرواية أن مدينة القيروان تكاد تكون مشيدة كلها بالطوب وليس بالحجر ، وما هو موجود فيها من أحجار فكله مجلوب من قرطاجه القديمة التى ما زالت كلها قائمة فوق الرءوس الآن .

وكان لا بد لنا من الحصول على ترخص لدخول الجامع ولم نكتف بالدخول إلى حرم المسجد بل دخلنا المسجد نفسه فإذ به ليس دار عبادة فقط بل هو جامعة علم مثلما كان عليه بيت المسيح (عليه السلام) فقد كان معبداً ومدرسة فى آن واحد ، وكان مفروضا علينا أن ننزع أحذيتنا ، كما أن المرافق لنا كان حريصا أن يطوى الحصر بلطف من طريقنا مخافة أن تنجس من وطء الأقدام .

وقد جلس التلاميذ فى المسجد تحت القبة الكبيرة فى حلقات حول شيوخهم يقرءون عليهم القرآن (الكريم) ويتدارسونه معهم. وهؤلاء الطلبة كانوا يستعدون

لأن يكونوا المشترعين والأطباء والفلاسفة للجيل المقبل ، لأن القرآن عندهم المصدر الوحيد لجميع العلوم[1] .

وتتدلى من سقف القبة العالية السلاسل العالية التى تعلق فيها السُرُج التى تشبه زجاجات المربى ، تثبت فى داخلها الشموع أو القناديل المزودة بزيت الزيتون ، وقد كان هذا النوع من الاضاءة فى الزمن السالف أفضل وأهدأ على الأبصار من الأضواء الكهربائية المتوهجة المستعملة الآن . وما كدنا نغادرهم حتى انطلقوا خلفنا وكادوا يدوسوننا بأقدامهم . مثل سائر التلاميذ (و بالطبع لم يكن بينهم تلميذات) حينما يصرفون فى نهاية اليوم ، يتدافعون و يتصايحون حاملين حقائب أدواتهم معهم .

وفى الطريق بين القيراوان وسبيطلة التى كانت العاصمة فى عهد حكم بيزانطيا ثم استبدل بها غيرها حالما ثفتت امبراطوريتهم ، انتابتنا حادثة مكدرة من أحداث القرن العشرين ، تلك هى حادثة انفجار عجلة العربة التى كانت تقلنا ، وكان ذلك فى بقعة من الصحراء اشد ما كانت قظيعة مثلما تكون الفظاعة فى أى حادث آخر .

فقد حفى الإطار من وعورة الطريق وخيل إلينا أن الأرض نفسها هى التى انفجرت عند تفكك أوصال الإطار وقد بدت بسببها انبعاجات ووهاد ونتوءات مما جعلنى أتصور أن صدى هذا الانفجار وحده كاف أن يصب كارثة فوق رءوسنا .

وقد صادفنا فى وسط هذه البرية فلاحا مع عائلته وأصغر أفراد هذه العائلة ولد لم تزد سنه عن ٦ سنوات تقريباً كان متعلقاً بمحراث بدائى يجره حمار ، وأكبرهم يعمل على محراث يجره جمل وأخوهما الثالث كان منهمكا فى سوق حصان أنهكته السنون . أما الوالد فكان يبذر بضع حفنات من الحب و يتابعه الأولاد بتغطيتها بمحاريث ذات سكك خشبية ، وكانت جماعتهم فى جلبة كبيرة فقد دأب الأطفال

---

(١) لا نعرف فى هذا العصر معهدا دينيا بعد الأطباء أو الصيادلة أو المهندسين أو غيرهم من أصحاب العلوم الفنية العصرية لا فى مسجد الزيتونة (بالقيروان) ولا غيره — فان لهذه الفنون معاهد خاصة بها . (المعرب)

ينحسون هذا الخليط من الدواب ليسوقوها سوقا عنيفا فصارت إزاء بعضها البعض فى سباق مستمر ، ذلولا لا يوقفها إلا اصطدام سكة المحراث بعقبة كأداء ، ينقذف بها الطفل الصغير إلى الأرض كما ينقذف راكب الدراجة من فوق مقبضها إذا ما اصطدمت العجلة بشيء صلب ، وهكذا انكبت الجماعة تقسم الأرض أقساماً منتظمة مثل تلك التى كان يعملها الرومان قديماً و بنفس تقسيمها .

وقد شاهدنا مثلها تحت أشعة الشمس المغربة فى قرطاجنة ، فمن أين لهم قواعد الهندسة التى يخططون الأرض على ضوئها ؟ لا أحد يحار جوابا على هذا السؤال .

أما أسبيطله فهى أطلال مدينة قديمة ناطقة بلسان حالها بمثل فصاحة بومبى نفسة Pompeii و إن أحجارها ذات اللون الذهبى اللامع من ضوء الشمس الساقط عليها لتحدثنا حديثاً له معناه فى أنفسنا وأنفس الأجيال الآتية بعدنا ، واسبيطله أو سوفتيولا كانت عاصمة جريجوار ، بطريق أفريقيا الذى ثار على امبراطور بيزنطيا فى القرن السابع بعد الميلاد ، وكان فى بادىء أمره والياً من قبل امبراطور القسطنطينية لكنه انتهز بعد ولايته عن مركز الامبراطورية وتعلل بنزاع دينى نشب بينهما فنادى بنفسه « امبراطوراً على افريقيا » .

ولكنه مع ذلك توقع أن الامبراطور يستطيع أن يحشد من القوات البحرية والبرية و يوجهها إليه لقمع حركته لذلك انسحب من قرطاجة وتراجع إلى داخلية الصحراء ، حيث يستطيع أن يعتمد على مساعدة البربر له . وقد استطاع بجهود جبارة أن ينقل معه إلى داخلية البلاد عمداً ضخمة وكتلا حجرية كبيرة من قرطاجة يبنى بها وبالحجارة المحلية عاصمته الجديدة ، وقد استجاب البربر فى بادىء الأمر لحكمه ولكنهم ما لبثوا حين شعروا بقدوم جحافل الجيوش العربية لغزو بلاد تونس أن انضموا إليها وكانت خاتمة جريجوار أنه ذبح تحت أسوار عاصمته الجديدة سنة ٦٤٨م .

ومع ذلك فليست حادثة مقتل الامبراطور هى التى أضفت الأهمية التاريخية على مدينة اسبيطله ، بل هناك أمر آخر وهو أن هذه المدينة اشتملت عدا ما اشتملت من

موال الكنائس البزنطية ومظاهر ترفها من ملاه وحمامات قصوراً أنيقة لكنها صماء سجينة داخل أسوار مرتفعة ومقفلة لا يطل منها للخارج باب ولا نافذة ، فكان كل قصر منها بمحتوياته ومساحاته و برك مياهه محوطاً بالأسوار كأنه قلعة تحت الحصار وكان الدخول إليها والخروج منها بواسطة سلالم متحركة تستخدم عند اللزوم وترفع بعد ذلك .

وقد بنوا فوق غرف الإقامة حجراً أخرى لتكون مخازن للميرة من زيتون وحب وأصناف الطعام الأخرى الكافية للحامية المحاصرة — وعلى مسافة عدة أميال من هذه القصور فى جوف الصحراء كانت المزارع المحصنة كذلك وهى التى فى داخلها توات مدينة اسبيطلة أيضاً إمداد السكان بالطعام فلما أعلن عرب البادية الحرب على المدينة هجر المزارعون مزارعهم ونزحوا إلى داخلية المدن المحصنة ، نسيت الزراعة فأمحلت الأرض وزحفت عليها الصحراء .

وقد شاهدت فى طرابلس — مما سأصفه بعد — صورة من هذا التحول نفسه من الأرض الزراعية إلى الصحراء الجرداء ؛ ذلك إن موسوليني وقد كان يمني نفسه ببعث سلطان الامبراطورية الرومانية فى افريقيا و إعادة مجدها هناك خرج لينشىء المستعمرات الإيطالية على سواحل طرابلس وبرقة ولكنه قصد أن يحتكر ثمارها للايطاليين ويحرم العرب منها حرماناً ظالماً وعندما أراد أن يدفع السكان إلى الصحراء أرهبهم بأن ألقى بعض زعماء السنوسيين من طائرات فى حالق الجو . كما ختم على العيون والآبار القريبة من الساحل بالأسمنت وهى التى يعتمد عليها العرب الرحل لسقى ماشيتهم وأغنامهم ، ليكرههم على الهجره إلى داخل الصحراء القاحلة ، ثم أخذ يوسع المستعمرات من الشريط الساحلى إلى الداخل شيئاً فشيئاً متوصلا إلى ذلك بأحدث الطرق وأفضلها و إن كان يخفى أسوأ المقاصد بالنسبة الوطنيين ، وجعل كل مستعمرة مستقلة بمورد مياهها العذبة واتخذ لها مركزاً ذا عمارة رائعة مزودة بجميع المرافق الضرورية لرفاهية سكانها .

وسرعان ماأصبحت تشاهد من خارج المستعمرات حدائقها الناضرة تأخذ بأبصار

المتطلعين اليها من الصحراء بفضل نظم الرى الكافية .

وأخيراً لما سقطت برقة وخرجت من سلطان الإيطاليين غادرها المستعمرون تاركيها للعرب أصحابها الأصليين .

أما فى طرابلس حيث لم يكن الصراع بين العرب والايطاليين عنيفا ، فإن الحكومة البريطانية المنتدبة لادارة هذا الاقليم الذى استرده الجيش البريطانى ، رسمت قواعد أمنت بها البريطانيين على البقاء فى مستعمراتهم وقد بقوا فيها فعلا . ومع ذلك فإنهم شعروا بأنهم ليسوا فى أمان كاف يسمح لهم بالبقاء فى الأطراف الداخلية المستعمرات فنزحوا عنها تجاه الساحل محتمين بقرب مراكز المستعمرات ، فأنت تشهد من هذا الفصل ومن قصة اسبيطلة ، إن التاريخ يعيد نفسه وإن الصحراء قد تزحف على الساحل الخصيب مرة أخرى ، وما من سبيل إلى الابقاء على الأراضى المزروعة إلا الجهد الجهيد والعناية الشديدة بأطراف الصحراء .

كانت فجوة «القصرين» فى الحرب العالمية الثانية ميدان قتال ، فإنها المنفذ إلى بلاد الجزائر من الجهة الغربية ، وفيها نزلت الجيوش الأميركية الجديدة التى جىء بها من الولايات الأميركية إمداداً لحملة شمالى افريقيا ، وكان مرسوماً لها أن تتقدم شرقاً لتغزو بلاد تونس وتتصل بالجيش الثامن البريطانى المتقدم ولكن قوادها كانوا غير مجربين ، فاصطدموا فى هذه النقطة بجند المحور المحنكين بقيادة روميل المشهور بالفظاعة الجامحة ففشلت حركة هذا المدد الأمريكى ولكن جيوش المحور لم تلبث أن أحيط بها وأطبقت عليها فى هذا المضيق نفسه قوى الحلفاء واضطروها إلى الانسحاب إلى الشمال ، وكان هذا مبدأ انهيار قوتهم ودحرها دحراً تاما .

والآن عادت «القصرين» هذه ميدان قتال من نوع آخر إذ انبثت بها الآلات الضخمة ، وانتشر الرجال يحرثون الأرض والأضواء الكاشفة تلقى باشعتها على هذه المنطقة الأفريقية ، وهذه الحركات ليست لقتال الأعداء من البشر ، بل هى مركز لعراك عنيف لاسترجاع « الأرض الزراعية المفقودة » تشهد جرارات المحاريث بدلا من دبابات الحرب والتدمير ، وليس رجالها مشتغلين بحفر الخنادق ، بل بتقليب التربة

وإنهم يتداولون العمل بينهم فى الليل أيضاً مستعينين بالأضواء الكاشفة ليصلوا ليلهم بنهارهم فى الافادة من جميع العتاد الذى تزودوا به فى هذا العراك .

ولم يكن مشروع إصلاح القصرين وليد تجارب الحرب العالمية الثانية وإنه لمن العجيب أن أصل الفكرة فيه نبتت فى الحرب الأهلية الأسبانية حينما تدفق الجمهوريون المغلوبون فى هذه الحرب إلى شمالى أفريقيا ، فكان من الضرورى خلق عمل لهم فقررت الحكومة التونسية القيام بمشروع كبير لكى يعمل فيه المهاجرون و يكون فى هذا المشروع إسعافهم فأرسل ثلاثة آلاف مهاجر إلى القصرين ، والمعروف أنها كانت فى عهد الرومان مركزاً لمزارع غنية بالحبوب كما تدل على ذلك آثار مدرجات الملاهى فى تلك البقعة وكانت المهمة الملقاة على هؤلاء المهاجرين هى أن يبنوا خزاناً على درب الوادى وكانت محلتهم فى بادى الأمر مجرد مأوى اللاجئين لكن المهاجرين أنفسهم اقتبسوا فكرة من البربر أصبحوا بفضلها «سكان كهوف عصريين» حيث نحتوا فى الصخور الجيرية مغارات مريحة لسكناهم .

وفى الحق إنها لمعجزة تضمن لمن يقف المشاهد فى مدرج مسرح يرجع تاريخه إلى ٢٠٠٠ سنة ، فيرى منه — متخطياً هذه الهوة الفسيحة من عمر الدهر — أسراً من سكان الكهوف الخوالى تطل عليه من خلال فتحات قنطرة معلقة !

ولقد تبدد شمل أولئكم المهاجرين الأسبانيين ، لأن الفاشية التى فروا من وجهها اقتنصتهم فى الحرب وشتتت جمعهم فلم يبق منهم إلا نحو خمسين أسرة ، ومع ذلك فسوف تبقى القصرين ذات صبغة أسبانية لا تمحى من قريب . فلقد تناولت فيها طعاماً أسبانياً فى مطعم أسبانى وكان ذلك فى قرية صغيرة مضاءة بمصابيح البترول ولكنها تبشر بأنها عما قريب ستصبح مدينة لا يقل تعداد سكانها عن ١٦٠٠٠ نسمة يعمرون أرضاً زراعية حديثة استردوها من الصحراء . وتجرى من الخزان المقام على درب الوادى قنوات فى مسالك بطنت بالأسمنت المسلح تشق الوادى وتمده بمياه الرى ، وقد حفرت ترعة عظيمة تخترق ذلك المضيق الجبلى تحت قنطرة معلقة هائلة ، و بذلك تحققت المعجزة وهى نظام رى مضبوط يروى الآن مساحة واسعة تبلغ ٥٠٠٠ فدان

تشهد فيها الحقول الخضراء تمتد وتزحف فى أرض كانت إلى عهد قريب جداً ميدان حرب دموية .

وسوف تبقى القصرين هذه على مر الزمان تذكاراً ناطقاً بالفخر لمن أحيوا مواتها ولقد صعدت مع مسيو سومانى إلى الهضبة من فوق المضيق ، صعدنا على ضوء القمر الساطع ، ومن هناك رمينا ببصرنا إلى أسفل الوادى القاحل تدب فيه الحياة من جديد فبينا أنا أتأمل وأدهش إذ بمسيو سومانى ذلك الرفيق الفكه طول الطريق ينقلب آمراً حازماً يقول لى « أخبرنى أن هناك فى الدنيا عشرة أشخاص يؤمنون بإمكان إحياء موات الصحراء ، نعم عشرة أشخاص فقط يؤمنون بأننا نستطيع أن نعالج غباوة الجنس البشرى ، و يومئذ أموت قرير العين ! »

وكانت مقابلة مسيو سومانى فرصة لا بد لى من انتهازها ، ذلك الفرنسى مديد القامة ، واسع الصدر ، عريض الجسم قلما تجد له نظيراً متحلياً بأفضل مزايا التقدير والاعتبار . ومذ كان طالباً فى الجامعة فى باريس حين كان يدرس التاريخ القديم ، قرر أن مستقبل الامبراطورية الفرنسية مرهون بمقدار ما تحققه من إصلاح زراعى فى المستعمرات ، لذلك قبل وظيفة فى وزارة المستعمرات ليتمكن من أن يقف حياته على شمالى افريقيا . ولم يتخل عن اهتمامه بالتاريخ القديم والآثار ، ولكن الفكرة المتسلطة على عقله كانت هى الجنس البشرى وكيف يدبر له الغذاء ، فكانت روحه روح الرائد مع تصرف المدير الحكيم . ولقد كثرت مشاريعه لتحقيق أحلامه حتى شغلت ملفاتها خزانات ضخمة ، وكان عليه فى سبيل تحقيقها أن يعالج قضايا كثيرة من جهة القانون والمالية والسياسة والقرآن (الشريف) فأصبح على مر الزمن خبيراً بشئون العرب يناقشهم فى صميم مصالحهم ، ولشد ما تحلى بفضيلة السياسي الصبور فلم يثنه عن عزمه فشل أو عقبات .

وقد أصبح والحالة هذه شخصاً معقداً ، قد تقاسمته الانسانية من جهة والادارة من جهة أخرى . وعندما وقفنا فوق القنطرة كان باقياً على تفاعده بضعة أشهر فى حين أن جهوده طوال حياته آخذة فى الازدهار مبشرة بأطيب الثمرات !

وها هو ذا يشهد فيما بعد بقرب قسطيلية Costilia مولد واحة جديدة جاهد فى تربيتها نحو ٢٥ سنة ، قسطيلية هذه يكاد لا يعثر عليها فى أية خريطة عادية وهى تقع بين توزير Joseur ودى جاش Gache وهما الواحتان الطبيعيتان أما قسطيلية فهى واحة من صناعة الإنسان دقت فيها بئر ارتوازية على عمق بعيد للغاية فتفجر منها الماء بقوة ثلاثة جالونات فى الثانية الواحدة فامتلأ من فيضها الحوض القريب منها ثم تدفق فى القنوات إلى الحقول التى كانت فى سالف الزمن مزروعة بالمحاصيل المختلفة وسوف تكون عما قريب حرجة كبيرة من نخيل الثمر ، هذه هى البقعة التى حين ذهب إليها لأول مرة مسيو سومانى منذ ٢٥ سنة ليمسح الأرض المقدر لها أن تصبح روضة فى الصحراء كان فى حراسة الجند المدججين بالبنادق ليقوه عدوان عرب المنطقة الذين ظنوا أنه ما جاء إلا لينتزع منهم حقوقهم فى المياه الموروثة عن الآباء والأجداد وما دروا أن مشروعه سوف يتمخض عن سعادتهم فى المستقبل .

ولكنه ما زال يقدم رجلا ويؤخر أخرى ملاقياً هؤلاء الأعراب بصبر وثبات عجيبين حتى آمنوا أخيراً بخلوص نيته بفضل ما بذله من محاولات لاقناعهم و بضرورة الفاقة والحاجة الملحة عليهم .

وهنا استطاع أن يرسل فى الجو « صفارة الأمان » إيذاناً بزوال الخطر و إذناً منه بالعمل لمسيو تكسيرون ورفاقه من خبراء المياه . وعلى مر الزمن سوف تمتد هذه الواحة شرقاً وغرباً بمحاذاة « شط الجريد » Marsh of Djerid فترتبط بواحتى توزير ودى جاش ؛ ودى جاش هذه هى واحة خصبة للغاية فيها زراعات الموز والبساتين الفيحاء . كما يستطيع أهلها أن يحصدوا نحو عشرة أو إثنى عشر محصولا من نبات الحلفاء على ضفاف تلك المزارع .

أما توزير فهى جنة الصحراء حقاً تصلح متنزهاً لمرتادى « شهر العسل » . والرحلة إليها ترى الانسان حقاً مناظر الخيال والابداع لما فيها من خصب ونماء .

وفى طريقنا قافلين إلى جفصة[1] Gafsa — لأن الطريق عبر الشط إلى قابس

---

(١) هكذا كتبت فى أطلس المساحة وفى مقدمة ابن خلدون « قفصة » (المعرب)

↑
كثبان الرمال تزحف فتحجب قلعة جبلية وتطغى على قرية صحراوية
↓

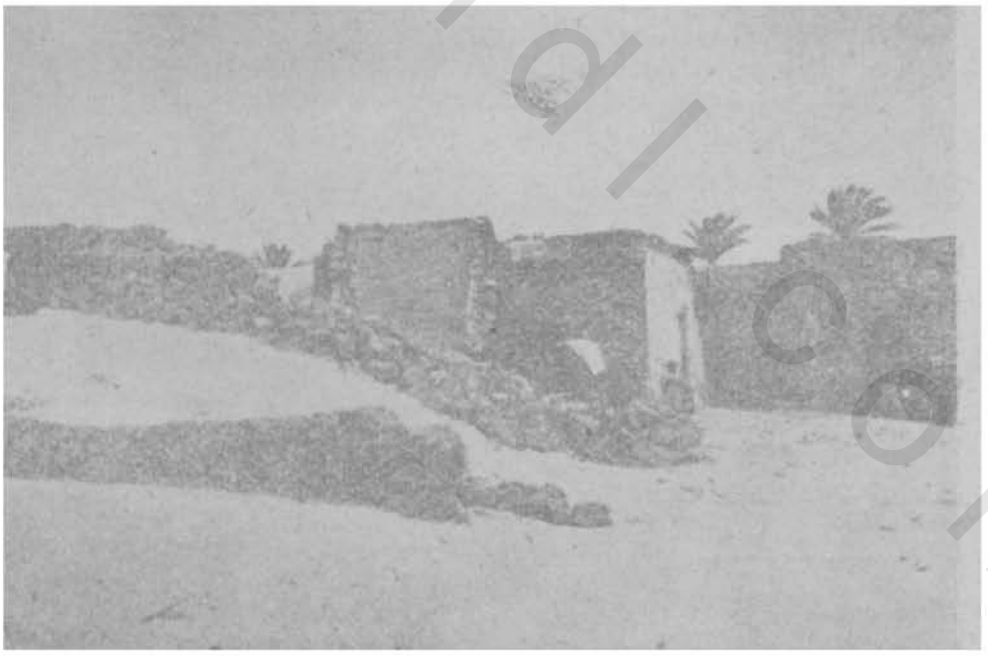

تثبيت الكثبان: زرع برسيم الديسا فى مربعات متشبكة مثل شبكة الصياد لمنع انسياب الرمال .

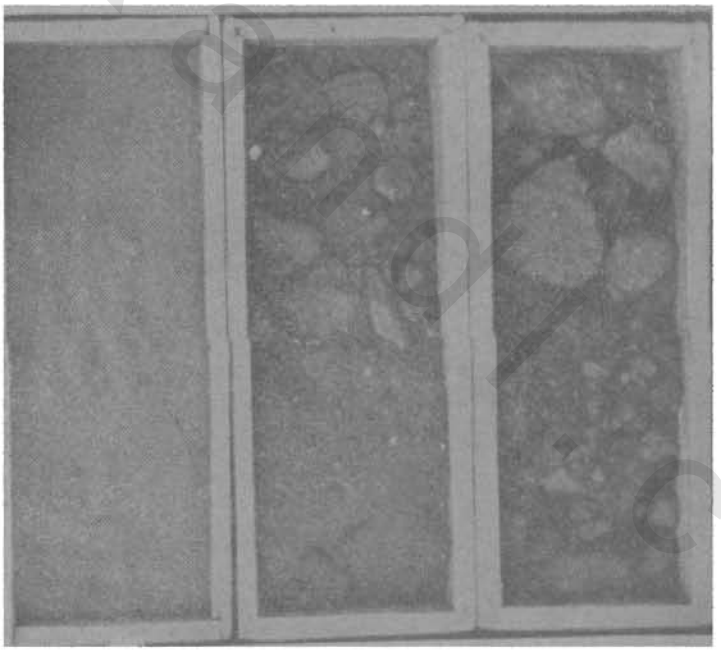

كثبان رملية ثبتت ، فتحولت الرمال الدقيقة التى تشبه رمل الساعة الرملية إلى تربة زراعية يفضل ريها مدة سنتين فقط . وذلك في أحواض التجارب الخشبية . »

Gabes هو حقل الموت المحقق لا بسبب الرمال الرهوة بل بسبب الملاحات الرهوة — زرنا واحة العيون السبع . وهـذه العيون هى أيضا رومانية المحتد ، والعمل قائم فيها لتنظيفها وربط بعضها ببعض لـكى يمكن بفيضها رى شريط آخر من أرض الصحراء فجزنا « المطلاوى » الذى هو قطاع مناجم الفوسفات التى تنتج سنويا مليون طونولاته من هذه المخصبات الـكيمائية ويخيل الينا أن معينها لن ينضب !

أما « جفصة » وهى واحة تطالب بها تونس فقد كانت فى الأزمنة القديمة « حديقة هيسبيريدس » « garden of Hesperides » وإن كنت أيها القارىء على استعداد لأن تصدق الأسطورة والأحاديث المروية عنها فاعلم أن فى جفصة هذه كانت التفاحات الذهبية التى حرستها الثلاث الفتيات « اللواتى يعشن فى أقصى المغـرب حيث تغرب الشمس كل مساء » . أما التفاحات الذهبية التى تحرسها لادون Ladon وهى تلك الحية التى لا تغمض لها عين ، فقد ذبحها هرقل Heracules فى محاولته الحادية عشرة لـكى يستطيع سرقة التفاحات الذهبية .

ولا ريب أننى رأيت بنفسى مغرب الشمس فى جفصة ، مغربا بالغا منتهى الجمال الجدير بأن يضفى على أية قصة ثوبا من الخيال يجعلها أسطورة باقية على مر الزمان . كما شهدت التفاح الذهبى لا يعد ولا يحصى ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن ما نشهده من الرمان كان هو التفاح الذهبى الذى أغرم به هرقل ؟

ولا شك فى أن جفصة حتى فى حالتها الراهنة وهى مجرد واحة فى الصحراء — ولعلها كانت فى القديم أفضل منها الآن بكثير — ، تكسو خصبها حتى لو لم يكن حقيقيا مسحة من خيال الأساطير ، كفى أنها مجال عيش لاثنى عشر ألفا من السكان مما يدهش له كل من يتصور أن الواحة لا تعدو أن تكون ينبوعا من الماء التفت حوله بضع نخلات البلح ، لـكن الواقع هو أن جفصـة واحة أو روضة بمعنى الـكلمة ، جزيرة نضرة فى وسط خضم الصحراء لا يبلغ ما ينزل فيه من المطر سنويا خمس بوصات ومع ذلك تنبت فيها أدغال الزيتون و بساتين الليمون وحدائق المشمش وحقول القمح

والشعير ومزارع تزود الأسواق بكل أنواع الخضر وكل شبر منها يحيا بالرى المنتظم . فتنبثق فيها العيون الطبيعية والنافورات الارتوازية والآبار التى ترفع مياهها بالمضخات إلى نحو ١٠٠ قدم . لذلك ترى المياه فيها تجرى فى غدران طبيعية أو فى قنوات مبطنة بالأسمنت المسلح ، كأنها الأحواض الممتدة نحو الميل تقريبا وأحيانا تضغط فى الأنابيب من خزان إلى خزان ، وأما الحيات التى تحرس فواكه هذا العصر فى الواحة فهى مهندسو الرى .

وإذا قال قائل « من المبالغة أن تسمى جفصة واحة » ، فماذا هو قائل عن قابس التى تضم فى زمامها نحو المليون من نخل البلح ؟ فقابس هذه وهى مدينة ساحلية طالما تردد اسمها فى إبان الحرب ، تعانى الآن حربا أخرى لتوسيع رقعة امتداد المياه شيئا فشيئا ، المياه التى هى شرايين الحياة تجرى فى موات القفار المحيطة بها . وقد أنشئت فيها جمعية تعاونية انتظم فى عضويتها جميع ملاك المياه ، ولما استطاعوا بفضل هذا التعاون تجميع مياههم فى حوض واحد ، أمكنهم الآن العمل على توسيع الرقعة الزراعية توسيعا كبيرا . ومشكلة المشاكل لديهم هى تشبع تربتهم بالملح ، هذه هى المشكلة التى اعترضتنى مئات المرات فى أثناء رحلتى . وإنها — كما شهدناها فى تاغت Taghit فى الصحراء الكبرى — ليست فى الماء لأنه لا يحوى إلا نسبة ضئيلة من الملح ولا فى تربة الأقليم الأصلية ، ولكنها ناجمة عن تراكم ذرات الملح يوما بعد يوم بسبب تبخر المياه العذبة .

والقوم فى قابس استطاعوا التغلب على هذه المشكلة بنقلهم المياه فى قنوات منخفضة مبطنة بالأسمنت المسلح تجرى فوق طبقات التربة الملحة حتى تصل إلى التربة العذبة وتريها ولهم طريقة أخرى يتبعونها فى مزرعة تجريبية واسعة وهى أنهم يستعملون السيل المنهمر ليلا — والذى هم ليسوا فى حاجة لاستخدامه فى الرى — فى غسل أملاح الحقول الزراعية ، والسبيل إلى ذلك أنهم يحفرون خندقا واسعا وعميقا حول الحقل ويصرفون غسيل الأرض الملحة إليه .

ثم إن مسيو سومانى ، ذلك الخبير بطبائع العرب ، (وإن كان لم يطمئن كل

الاطمئنان إلى حسن استقبالنا فى جبال مطاطا Matamata Mountains حيث يقيم المسلمون سكان الكهوف) وافقنا على زيارة هـذه الجهة . ومبعث ريبته هو أن المسلمين فى تلك الجهة يعتبرون أقل دنو من حريمهم جريرة لا تغتفر وأى حوم حول مساكنهم تهجما لا يسمحون به ، ولكن الموقف بالنسبة لسكان الكهوف أدق من ذلك وأخطر لأنهم يعتبرون « المشى » فوق أسطح مساكنهم خرقا لحرماتها أو تنجيسا لها ، ولما كانت مساكنهم متوارية فى باطن الجبل ، فلا يكاد يأمن المار أن يمشى فوقها وهو خالى الذهن من إحداث آية إساءة لهم . وهذا ما حصل معنا فعلا.

فقد خاطرنا بتسلقنا مسالك الجبل بواسطة السيارة ، وهى المسالك المنحوتة كأنها الأرفف يعلو بعضها البعض نقروها من سطح التل ، ويخيل لرائيها أنها ممتدة إلى أمكنة نجهلها كل الجهل فكلما وصلنا إلى مفرق من المفارق وجدنا المسالك تتجه إلى ما نجده الجهة التى بدأنا منها سيرنا وذهبت بنا هذه الحيرة أننا اعتقدنا أن السلطة العسكرية رتبت هذه المعميات لتضليل الناس فى هذه المنطقة العسكرية ، التى هى جزء مما كان يسمى بخط دفاع المستنقعات . وحيثما سلكنا من الطرق وجدنا أنفسنا ندور حول « مطاطا » دون أن نصل اليها فكأننا فى قطار المناظر الذى يدور برا كبيه للتنزه لا للسفر ، ولا تفترق عنه إلا بأن « المطبات » فى الجبل كانت تهز الأعصاب أشد من اضطراب أى جواد سباق جربته فى حياتى .

والاهتداء إلى الكهوف كان من أشق الأمور على طالبها ، لأنها كانت مستورة تحت الجبل بمناظر مضللة cemauflages — فكنت ترى الجبل وقد صورت فيه صورة كاذبة كجحور الأرانب ، فإذا قصدتها لم تجد شيئا . ذلك لأن كهوفهم لم تكن مثل الكهوف المنقورة أفقيا كما اصطلح عليه الناس ، إنما كانت حفرا منقورة رأسيا فى التل ، فإذا « فطن الإنسان لحيلهم » يبدأ بالبحث عن أكداس الروث المجاورة لكل كهف مخبوء . و بتطبيق الطريق على المعالم المرسومة لنا من قبل نظن أننا وصلنا مغارة سكان الكهوف (الأقدمين) ، ولكننا لم نكن لنصدق أن سكان الكهوف لديهم مدرسة عصرية أنيقة ، حتى أكد لنا مسيو سومانى أن ماشاهدناه

هو حقيقة مدرسة أطفال سكان الكهف ، وقد أيد هذا القول صبي ممتلىء ذكاء ونشاطاً تعلو وجهه الخبيث عمامة كبيرة ، فكأنه كشاف قام بمهمته حق القيام طول اليوم ، حين أقبل علينا ليرشدنا إلى الكهف ، ولكننا لم نكد نتسلق جانب التل الصخرى حتى استوقفنا من خلف جعير صادر من شبح مخيف ترفرف ثيابه فى الريح ، وقد توتر شعر لحيته من شدة الغضب ، اندفع يطاردنا ويساعده فى هذه المطاردة جمع كبير من قومه . فقال مسيو سومانى بالفرنسية « هذا ما خشيته ! » ثم تقدم ليتفاهم معهم ، وقد كنا مهددين حقا بثورة ضدنا لأننا فى هذه الآونة كنا نسير فوق منزل ذلك الشبح الثائر علينا ، ولم يكن فى وسعنا إلا أن نعلن تراجعنا من موقفنا ، وإن كان الموقف بالنسبة للمسلم الثائر هو أن الضرر قد وقع ولم يكن ثمت سبيل لإصلاحه .

لكن « ألفى الصغير » وهو اسم الدعابة الذى لقبت به الصبى الكشاف ، هرول لينادى والده لعله يخرجنا من هذه الورطة ، وقد تبين أن والده كان من البربر المسالمين واسعى الأفق فقال لنا بلغته طبعا « لا يهمكم هذا الشيخ الخرف الأبله ، إنه مجنون » وزاد على ذلك أن دعانا لزيارة كهفه هو الأمر الذى دهشنا له كثيرا .

ثم نزل بنا فى حفرة لا يقل عمقها عن ثلاثين قدما وقطرها عن عشرين فكنت كأننى أطل فى بئر السلم — أو المنور — القائم فى عمارة شاهقة متعددة الطوابق ثم قادنا إلى مدخل المغارة المخبوء حيث سلك بنا دهليزاً منحدراً وإذ بنا نتوسط عدة حجرات أعدت لسكنى أزواجه العديدات وأولادهن الكثيرين ، كما دخلنا فى حجرات النوم المرتبة المريحة والمزدانة جدرانها « بصور غانيات العرب » مطبوعة بمطبعة الحجر ثم دعانا لمشاهدة الحجرة المستعملة مطبخاً ، امتلأ جوها بعبيق الوقود المتخذ من حشائش عطرية ، وهنا جلست إحدى زوجاته وبعض أطفاله يجهزن طعاماً مشبعاً بالأفاويه ثم انتقل بنا إلى العلالى المخزن فيها مؤونة الأسرة من غلال وغيرها وأخيراً نزل بنا إلى مخزن الزيتون الذى امتلأ بمقادير عميقة الحجم من الزيتون الأسود اللذيذ الطعم وانتهى بنا المطاف إلى معصرة زيت الزيتون ، حيث شاهدنا دناناً جسيمة الواحدة منها فى حجم الرجل ملئى بالزيت كأنها دنان « على بابا العظيم » ولقد بنى

حوض فى وسط فناء المغارة يحتجز مياه المطر التى تنساب من فوق ، ولكن مورد المياه الرئيسى هو الآبار وأخيراً اطلعنا على حظائر الحمير المبنية تحت الأرض . وهنا لعب مسيو سومانى دور سنتا كلوز[1] Santa Claus مع سرب من الأطفال ذوى الوجوه السمر كأنها من خشب المغنى اللامع ، فى حين أن أمهاتهم وقفن سافرات فخورات يحبسن ضحكات خفية ولا يعروهن شىء من الاستحياء حين أخذ إبنها أو ابن ضرتها وهو الصبى الذى أسميته أنا « ألفى » يعرض حجرة دراسته وقد طبعها طابعاً فرنسياً . حقاً كل شىء فى الكهف كان لطيفاً ومسالماً وأليفا .

وقد ثمنا برحلة مضنية أخرى متعرجة الطرق ، وصلنا بعدها إلى قرية ميدنين Medenine وهى قرية عجيبة اشتبكت بيوتها كأنها عيون خلية النحل ، وهى أكواخ مبنية من الطين ذوات أسقف مقبوة تعلو الواحدة منها الأخرى ولذلك أشبهت خلية النحل ، يتوصل إلى العلوية منها وهى فى الطابق الخامس أو السادس بالتسلق وهو جد خطير، وهى طوابق معدة كل منها لسكنى أسرة مستقلة ، وقد قيل لنا من قبل أننا سوف نجد البلدة القديمة مهجورة ، وأنه أنشئت قرية جديدة فى ربضها ذات مساكن عصرية ، ولكن هذا القول لم يصدق إذ ظهر أن تلك الأكواخ تعج بالسكان ، والغريب أنها خلو من النساء ، ولما جبنا شوارعها الضيقة الغاصة بالإبل حين ينيخها حداتها المتدافعون بالمناكب ، تبين لنا سبب خلوها من النساء ، وهو أنهم خصصوا القرية القديمة لضيافة رجال القوافل و يسمونها « سراى القوافل » Caravanserai ينزل بها تجار البادية الذين يقدمون ليبيعوا محاصيلهم لسكان القرية ولا تصحبهم نساء فهم الذين يحطون ركابهم فى هذه الخلايا .

وقد طرأ طارىء مؤسف فى آخر مرحلة من رحلتنا فى الجبال الوعرة فى جنوبى بلاد تونس، وهو أن مدام كلود آلان Mme. Clande Alain شعرت بألم شديد لكنها

---

(١) شيخ الهدايا للاطفال فى ليلة عيد الميلاد (المعرب) .

حاولت أن تخفى تألمها وتبقى على نشاطها وسخائها فى مساعدة أعضاء الرحلة فلم تستطع لأن محنتها كانت لا تطاق ، وجميع ما حوته حقيبة الإسعاف المتنقلة معى — والتى لم تخل حتى من العقاقير المضـــادة للدغ الأفاعى وعلاج حمى الملاريا ، بل من عقـاقير الإسعاف ضدالـكوليرا نفسها كل هذا عجز عن تلطيف آلامها وتسكين صداعها .

وهنا أخذنى مسيو سومانى جانباً ، وقص على قصة هـــذه السيدة : هى السيدة كلود ، إحدى بطلات جيش المقاومة أولا فى تونس وثانياً فى فرنسا نفسها ثم وقعت تونس فى نفوذ جنود المحور بواسطة حكومة فيشى عند انهيار قوى الجيوش الفرنسية الرئيسية فتوارت كلود مع كثيرين غيرها واندمجت فى قوى المقـــــاومة المستترة لـكنها لم تلبث أن عثر عليهـــا وأخذت سجينة فى مراكش ثم أبعدت إلى فرنسا ولـكنها هربت مرة أخرى والتحقت بجيوش المقـاومة المستترة ، وقد قبض عليها الجستابو (الألمـانى) حال قيامها بإحدى المهمات الخطيرة فأذاقوها من العذاب ألواناً ، مما لا زالت آثاره بادية فى جسمها . . ثما تعرضت إليه تسليط أشعة كليخ عليها Kleig Lights مدة ٤٨ ساعة حرمت فى أثنائها من النوم وتتابع عليها المحققون فى أثناء هـــذا السهاد المرهق يحاولون ثنى عزيمتها وتليين قناتها لجعلها تبوح بالمعلومات التى كانت تؤدى حتما إلى موت شركائها فى المقاومة أو ما هو أشق من الموت . وقد خاب أملهم فى الحصول منها على أمنيتهم ولـكن السيدة من طول سقوط الأشعة على بصرها أصيبت بتلف فى أعصاب عينيها زاد من وطئته عليها ما تعرضت له فى أثناء رحلتنا من وهج الشمس فحرك آلامها « أضعاف أضعاف آلام وجع الأسنان » .

وكانت هذه الآلام الجثمانية أقل ما انتابها بسبب الرحلة لأن هذه الآلام أثارت الشجون النفسية الـكامنة وبعثت فيها الـكوابيس القديمة التى كانت تعتريها فتقع فى

كرب فكرى أليم طوال مدة سجنها فى ١٤ سجناً من السجون المختلفة الأشكال والألوان والتى بلغت أشد أهوالها فى سجن « رافنزبروخ » Le Ravensbruch ، حيث أجلوا تنفيذ إعدامها من يوم إلى يوم لتشعر بتحطيم نفسها وتشهد إعدام أصدقائها الواحد تلو الواحد ، ولكنها بالرغم من ذلك استطاعت أخيراً — حين اضطرب حبل الأحوال فى الأيام الأخيرة من حياة هتلر — أن تنجو بنفسها وقد اعترف لها بالجهاد المرير بمنحها «وسام ليجيون دونير» Le gion d'Honneur الذى تحلى صدرها بشارته الآن . لذلك قرر مسيو سومانى أنها تعود فوراً إلى تونس و إن كانت هذه العودة ستحملها آلام السفر فى ليل طويل . فكانت هى ورفاقها متجهين إلى الشمال فى حين أنى ورفاقى كنا متجهين إلى الجنوب وكان افتراقنا عنهم فى خط مارت Mareth Line.

الفصل الخامس

الفائزون فى سباق دربى

بين علم فرنسا مثلث الألوان فى بنى جردان بتونس وعلم بريطانيا فى زوارة بطرابلس Ben Gardane&Zuara منطقة حياد عرضها ٤٠ ميلا ، كانت فيما مضى حدوداً محصنة بين القطرين أما الآن فلا يشهد فيها العابر سوى حطام العربات والقلاع الإيطالية وهى بقايا وسائل الدفاع التى أعدها موسولينى عن طرابلس ، ومما يثير الضحك قيام حاجزين جمركيين شاخصين وحدهما بين هذه الأنقاض الموحشة ، يفصل الواحد عن الآخر نحو ميل أو ميلين فكأنهما بوابة لحديقة كبيرة لا تحيط بها أسوار مطلقا .

ومع ذلك أوقفونا فترة من الزمن عند الحاجز الفرنسى لأن السائق الفرنسى لم يكن معه جواز الدخول إلى طرابلس فأخطر الحارس العربى أن يتصل تليفونياً بالحارس العربى المقابل له عند حاجز طرابلس البريطانى ، وقد امتلأت حجرة الحارس التونسى بنفر من البدو جاءوا ليؤنسوه بأحاديث الصباح وليحتسوا عنده فناجين القهوة فكان منظرهم جميلا ومؤنساً مثل منظر أى مقهى قروى غريب ، وفى فترة الانتظار سليت نفسى — كما يعمل الأطفال — بأن درت مخلف حجرة الحارس ووثبت إلى المنطقة الطرابلسية وعدت منها إلى بقعة انتظارنا .

ثم فحصت عربتنا فحصا سريعا للتأكد من خلوها من سلع أو ممنوعات مهربة وبعدئذ فتح الحارس الحاجز إيذانا لنا بالعبور وشيعنا بتحيات كثيرة ، وأشبهت هذه المعاملة فصلا من فلم « اخوان ماركس Marx Brothers » وقد امتدت الحدود إلى الجنوب نحو ١٠٠٠ ميل تقريبا ، والرجال الرسميون على الجانبين يعلمون أن جميع قوافل الإبل العابرة ذهابا وجيئة تنقل السلع المهربة أو المحظورة على الدوام و بدون

تحفظ . ومما لا ريب فيه أن جميع التجارة بين بن جردان وزوارة تعبر خفية دون دفع الرسوم الجمركية .

وقبل أن نصل إلى الحاجز البريطانى تقابلنا مع مراقب الزراعة فى طرابلس مستر و . ج . ف . تايلور Mr. W. I. V Taylor والضابط السياسى القادمين من زوارة ، وهناك سلمنى مندوبو السلطة الفرنسية رسميا إلى مندوبى السلطة البريطانية .

ولولا أن أرمى بقلة الذوق واللياقة ، لسارعت إلى مغادرة زوارة لأنى أرى فيها المثال الحى لموضوع « عناد الإنسان وغباوته » ، إذ نشهد فيها المأساة التى قضت على تراث الحضارات السابقة وصهرتها وأذابتها فى بحر من الرمال اصطنعه الإنسان بإهماله وأنه هو نفسه ذلك البحر الرملى الذى منذ أربعين سنة طغى على صميم مدينة طرابلس وهدد سراى الحاكم التركى بالإغراق .

ومن آثاره ما نشهده فى زوارة من كثبان رملية مرتفعة كأنها الجدران المتحركة تهجم على المدينة ، وفى خلال هذه الكثبان بيوت هجرها ساكنوها وطمرتها الرمال فلا ترى منها إلا سطوحها ، وأشجار النخيل دفنت فلا ترى منها إلا قممها الخضراء تطل كأنها أجمات صغيرة ، وهناك مخزن كبير اكتسحت جدرانه الكثبان المائجة ، وقد حدث حين تسلم البريطانيون حكم البلاد على أثر اندحار قوات المحور أنهم اتخذوا من أرض هذا المخزن المفروشة بالأسمنت المسلح ملعبا للتنس ولكنك الآن لا تجد لهذا الملعب من بقية تسمح بلعبة كرة المائدة (بنج بنج) .

والمدينة هى وهدة محصورة بين ريحين عاصفين أولهما يهب عليها حاملا الرمال من الصحراء وثانيهما يهب عليها حاملا الرمال من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فاذا اصطدم الريحان سقطت الرمال من كلتا الجهتين مكونة الكثبان ، وهذه بدورها تترامى كأنها جيش عرمرم يريد أن يحدق بالمدينة .

وما كانت هذه النتيجة محتومة لا مفر منها لولا إهمال الإنسان وأن الأسباب والنتائج شاهدة على ذلك . ولأن هذه الرياح إن لم يصدها صاد سوف تثابر على إثارة

الرمال الخفيفة ، فالواجب أنها لا تترك بدون صاد يصـدها وكذلك يجب ألا تترك رهوة سريعة الاثارة .

والأشجار هى التى تستطيع أن تقف سدا محطما هبوب الرياح ،والحشائش تصلح أيضا لتماسك كتلة الرمال فى الكثبان ، و بذلك ينقطع سريانها نحو المدينة .

و يخيل الينا أن البدو الرحل تكوّن لديهم على مر الدهور عقيدة معادية للأشجار والحشائش ، تدفعهم للسطو عليها بدون ترتيب ولا سبب ، ولا ريب أن أصل هذه العقيدة نجم من شرههم فى طلب الوقود يدفئـون به جسومهم من قرس البرد و يطهون به طعامهم — والحق يقال إنهم معذورون فى ذلك كل العذر .

ولما تمكن الجيش الثامن البريطانى من إجلاء الإيطاليين عن البلاد ، احتفل عرب البادية لتحرير بلادهم وذلك باجتثاث نحو مليون شجرة من غرس المستعمرين السابقين ، وكذلك عندما أصدرت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة قرارا وعدت فيه باستقلال ليبيا تظاهر أحداث مدينة زوارة ابتهاجا بالمناسبة السعيدة ، وكانت وسيلة إعلان فرحهم هى اجتثاث الفصائل الجديدة التى غرسها البريطانيون أنفسهم .

و ينضم إلى هذه الأسباب ذلك « الجراد الأسود » وأعنى به « المعز الجياع » ، التى لا تذر أخضر ولا يابس على الأرض إلا قضمته ، فكأنها « الطابور الخامس » تدسه جيوش الرمال فى مواطن غزوها .

وما كان لحكومة الانتداب البريطانى — ومبدؤها يتفق مع أوامر القرآن الكريم بحماية الأشجار — أن تركب المركب الخشن ضد البدو للقضاء على عادات تأصلت فيهم من قديم ، كما فعل الفاشست فى أيام حكمهم ، و إن كانت تنكر هذه العادات وتأسف لها . لذلك اكتفت بالإيعاز إلى الحكام الوطنيين أن يسنوا من القوانين ما يحول دون هذا الاستئصال ، ولكننا لا نلبث أن نصطدم بعقبة أخرى وهى التعارض بين الحقوق الموروثة المعترف بها للعرب سكان الحضر و بين حاجات عرب البادية الذين يسوؤهم كل الإساءة تسوير مساحة من الصحراء عديمة القديمة

والمعنى ، وهذا شبيه بما ينشب من النزاع بين مجلس صيانة الأراضى الزراعية فى انجلترا إذا تهجمت العامة من غير الملاك بالصيد فى أراضيهم .

وقد سنت الإدارات المحلية فعلا القوانين التى أصبح بمقتضاها قطع الشجر أو ترك المواشى ترعى على الشجيرات المزروعة لتكون سياجا لكثبان الرمل بقصد تثبيتها ، جرائم يعاقب عليها القانون .

كما أقيمت السياجات التى تحول دون دخول البدو الرحل وتغير وجهتهم إلى مراع قاصية عن أرباض المدن . وقد أيد الرأى العام فى البلاد مجلس بلدى مدينة زوارة فى إصداره هذا القانون وما دفعه إلى ذلك إلا شهادة العيان بأن الرمال توشك أن تطغى على المدينة . وليس خطر كثبان الرمال مقصورا على الشريط الساحلى من البلاد ، بل أن هناك مساحات كبيرة قاصية عن الساحل ، ومع ذلك تزحف عليها الكثبان حثيثا جارفة أمامها المزارع الساحلية .

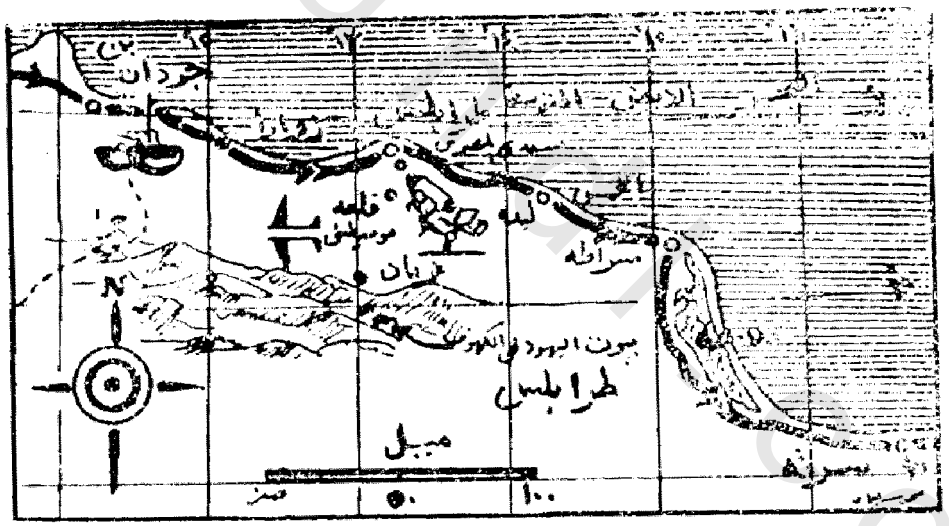

و بالتفاهم المستمر مع الأهالى أمكن إقناعهم ، فوضعت الإدارة البريطانية يدها على هذه الكثبان وقسمتها إلى مربعات كل منها ٥ × ٥ ياردات ، وزرع حول كل مربع نبات الديسا dess وهو حشيش وطنى غليظ يصلح إذا نما أن يكون سياجا لفسائل أشجار السنط acacia المغروسة فى داخل المربعات .

ونيط بحراسة هذا النظام خفراء مأجورون من البدو أنفسهم عملا بقاعدة (اتخذ

من اللص حارسا) وقد استطاعوا فعلا منع المعيز والبدو الرحل من التعدى عليها .

ولما كانت الحشائش تبذر بذورها بنفسها ، تمكنت أنواع مختلفة منها من النمو والاشتباك فى خلال التربة حتى جعلت منها طبقة مضفورة كأنها الحصير ، وبهذه الطريقة أصبحت الكثبان فى وقاية من هبوب الرياح عليها وإثارتها نحو المناطق الساحلية ، فكأنها غطيت بمساحات من النسيج المشمع المتين .

وبهذه الطرق وأمثالها استطاعت الإدارة الزراعيـــة أن تسترد وأن توسع ذلك الحزام الزراعى الضيق المحيط بمدينة طرابلس ، والذى بدأ الإيطاليون إنشاءه منذ ٢٥ سنة ، وما زالوا يوسعونه شيئا فشيئا إلى داخل الصحراء ، فاذا استمر العمل على هذا النهج عشر سنوات أخرى سوف يتحقق به وجود غابة دفاعية تصد الصحراء أن تمتد وتنتقص من الحزام الخصيب وتكون عاملا مساعدا على إخصاب التربة وفى الوقت نفسه وتستطيع أن تمد العرب بحاجتهم من الوقود باقتطاع مقادير منتخبة بنسب محدودة من هذه الغابة ولقد كنت على الدوام ميالا إلى نقد العرب لقلة تبصرهم بالقضاء على الأشجار والنباتات ، ولكننى وجدت الخبراء المنوط بهم المحافظة عليها ، والذين من واجبهم الأول الشكوى من محاولة استئصالها وجدتهم يتسامحون معهم و يتلمسون لهم الأعذار :

أولا : لشدة حاجتهم إلى الوقود .

ثانيا : كما عبر لى واحد منهم أنهم وهم قوم رحل يشبهون جيشا عابر سبيل نزل فى معسكر مؤقت إذا شرع فى الرحيل عنه لا يسعه إلا أن يمحو كل آثاره من مبان وغيرها ولا يبالى بما يخلفه لمن يأتون بعده من ضنك ومتاعب .

ثالثا : بأنك إذا دأبت على التفاهم مع أولئكم البدو تجدهم سهل القياد ذوى قابلية للتعلم فتستطيع أن تصل معهم إلى تقرير قواعد لتحقيق غرضك فالمسألة مرهونة بما تتحلى به من الصبر والثبات على مقاومة تلك التقاليد والحجج التى لا حصر لها ولا عد

فتجدهم يرددون الأمثال جزافا مثل قولهم «القسمة» (أى القضاء والقدر) و «سوف يعطينا الله تعالى» مع التعود والتواكل [1].

وقد قص لى موظف فى الادارة المحلية فى طرابلس أنه ذهب مرة ليواسى شيخا من شيوخ البدو ويعزيه على فقد محصوله بسبب الجفاف الشديد وكان محصوله هذا من الشعير الذى تعتمد عليه القبيلة فى غذائها طوال العام، فما كان يسمع منه إلا ترديد قوله «الحمد لله»، فلما ردد الزائر الأسف لمصابه قال له البدوى، إنى لن أحصد هذا المحصول وسوف «يرزقنى الله». وقد رزقه الله من بضاعة الاغاثة الخارجية التى يتحمل عبئها دافعو الضرائب البريطانيون.

وطرابلس ذات أنواع من المناخ متباينة كل التباين. ففى القطاع الساحلى يسقط من المطر ما متوسطه سنويا ١٦ بوصة فاذا ما تقدم الإنسان إلى داخل البلاد نحو ٧٠ ميلا وجد هذا المتوسط يهبط إلى ٨ بوصات فقط ثم إذا هو تعمق إلى الداخل بما يوازى لراكب السيارة ساعة من الزمان، وجد متوسط المطر يهبط إلى ٤ بوصات. ولقد كنا نظن أننا نتمتع بجو معتدل فى طرابلس وإذا بنا نجد درجة الحرارة فى طرابلس هى من أعلى الدرجات فى العالم فقد بلغت فى قرية العزيزية فى يوم ١٣ مارس سنة ١٩٢٢، ١٣٦° فهرنهيت [2]، ونظرة إلى الخريطة توضح ذلك، فهذا خليج سرته، وهو أعمق خليج فى البحر الأبيض المتوسط يمتد جنوبا فى داخل القارة الأفريقية، وإنه لتوغل كبير تجاه المنطقة المدارية الغنية بخيراتها، بل إن هذه الحقيقة الجغرافية لتفسر لنا أصل مدينة طرابلس أو «Tripoli» أى المدن الثلاثة وهى تلكم المدن القديمة إمبوريا وسابراطا وأوا Emporia, Sabratha Oea.

ويقوم على أطلالها مدينتا «طرابلس» الحالية «ولبدة الكبرى» Leptis Magna [3]

---

(١) لا شك أنهم لا يفهمون مرامى هذه العبارات الايمانية الفهم الشرعى الصحيح الذى يتفق مع القرآن الشريف الذى يقول «إذا عزمت فتوكل على الله». (المعرب).

(٢) أى ٥٨ مئوية تقريبا وهذا عجيب حقا. (المعرب).

(٣) هكذا يكتبها أطلس مصلحة المساحة. (المعرب).

وكانت هذه المدن القديمة هى الموانىء الفينيقية التى تنتهى اليهـا من أقرب مسافة التجارة مع بلاد وسط أفريقيا التى كانت تجلب الرقيق والعاج والتبر الخ .

وقد عمد الفاشست ، من المستعمرين الإيطاليين إلى استرداد الخصب والنماء إلى طرابلس لكى يجعلوها مخازن حنطة لرومة مثلما كانت فى قديم الزمان . ولكنهم فى سبيل ذلك غلطوا عدة غلطات . فلقد شاهدنا آثار المستعمرات — تنعى من بناها — هجرها مؤسسوها الإيطاليون قبل طروء حركة التحرير التى هددت سلامتهم .

ذلك لأنهم أسسوها فى مناطق قدروا أن يدقوا فيها آبارا عذبة ، وإذ بالمنطقة نكدة لا تحوى إلا ماء ملحا أجاجا .

ومع ذلك فلربما كان الأمل يتحقق وتنزاح الطبقة الملحة لو أنهم تعمقوا بالحسات إلى عمق ١٠٠٠ قدم بدلا من ٨٠٠ قدم التى وقفوا عندها هـذا ولربما أمكن اسعاد البلاد بغرس أدغال الزيتون فى السهل المنبسط خلف مدينة طرابلس تجاه الصحراء ، باستخدام الآلات الحديثة فيه ، ولقد حدث لأول مرة فى سنة ١٩٤٩ — ١٩٥٠م منذ التاريخ القديم أن صدرت هذه البلاد نحو ٥٠٠٠ طونولاته من زيت الزيتون، الذى هو نتاج أدغال الزيتون من غرس الإيطاليين منـذ اثنتى عشرة سنة وقد آتت أكلها حديثا ومن بعض الآجام المزروعـة من قبل بزمن بعيد جدا . ولقد شاهدنا أشجارا مثمرة قيل أنها توارثت جذور ٦٤ جيلا من أجدادها أى نحو ٢٠٠٠ سنة(٢)

فكيف حددت هذه الآجـال ؟ يقولون لأن ٦٤ ذرية من السكان الحاليين يتمسك كل منهم بنصيبه من الثمار المتخلفة عن الأجداد طوال هذه الآجال : بل إن الكثيرين منهم مشتت فى أنحاء العالم المختلفة ومع ذلك فهم جد متمسكين بنصيبهم من ثمر الشجرة الفلانية وتحت يدهم المستندات الدالة على ذلك .

---

(١) إذا متوسط جيلها ٣١ سنة وهو يقرب من جيل الإنسان على أوسط الأقوال (المعرب).

ولا يسع السلطة القائمة إلا أن تحمى حقهم هذا ، حتى لو كان هذا النصيب لايكاد يكفى لعمل طبق من الكامخ (السلطة) . ولقد عثرت فيما بعد فى خلال رحلتى فى فلسطين على أشجار توزع ثمارها بمثل هذه الطريقة فتحسب على أساس $\frac{1}{100}$ للسهم الواحد .

ويلاحظ فرق كبير بين كيفية زراعة أدغال الزيتون عند العرب ، وكيفيتها عند الإيطاليين . فالإيطاليون يزرعونها فى صفوف منتظمة كأنها صفوف جيش فى عرض ، أما العرب فيزرعونها فى العراء مبعثرة كيفما اتفق كما يزرع الإنجليز فضاء المتنزهات العامة ، ومن الطريف أن يسمع الإنسان مناقشة خبراء الزراعة يبدى كل منهم مزايا إحدى الطريقتين على الأخرى .

فى الأدغال الإيطالية يحرث الزراع الأرض الفضاء بين الصفوف أما بالطريقة العربية فإنهم يحرثون الحوض المحيط بكل شجرة على حدتها وقد أدلى أحد الخبراء بحجة مفحمة ضد الطريقة الإيطالية حين قال إنهم يمدون صفوف الأشجار بين الشمال والجنوب ولما كانت الرياح السائدة فى البلاد تهب دائماً فى هذا الاتجاه نفسه فهذا يمكنها من إثارة التربة وتعرية الأرض على مر الزمن .

وفى الإمكان إنتاج محاصيل جيدة فى الحزام الخصيب من ثمار الموالح واللوز والفواكه الرخوة مثل الفراولة وفى الإمكان الآن إنتاج الفراولة فى طرابلس وتصديرها إلى كوفنت جاردن Covent Gorden [1] قبل ظهور بواكيرها فى انجلترا بشهرين أى فى شهر يناير من كل عام .

ولكي يقتنع الإنسان بصلاحية ما يسمونها الآن « صحراء » عليه أن يتوجه إلى قرية « سيدى المصرى » وهى محطة التجارب فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس فقد احتفظوا فيها بصورة شمسية لمعهد أنشىء بها سنة ١٩١١ ، إسمه « الكلية الزراعية

---

(١) حى فى لندن فيه سوق الخضر بالجملة (المعرب) .

التركية » فى عقر الصحراء ، ولا بد أن الذى أقامها هنـــاك — كائناً من كان ذلك المؤسس — كان عنده الإيمان الصادق بفائدتها أو ضرورتها . ولقد صدق الزمن إيمانه هذا ، إذ أنها الآن تحولت إلى مزرعة خصبة تبلغ مساحتها ١٨٠ فداناً من النباتات البستانية ، تشهد فيها أنواعاً لا يحدها الحصر من الأشجار والنباتات المختلفة المستجلبة من الجهات المقاربة لهذا الموطن مناخا ، وتجرى عليها عمليات التجارب المختلفة حتى تصبح صالحة لهذا الموطن تربة ومناخا ، وتسقى من ثمانى عيون نصبت فوقها المضخات التى تديرها المحركات الهوائية المرتفعة ، لذلك يمكنك أن تشهد بفضل هـــذه الاستعدادات معجزات زراعية فمثلا ترى التربة الرملية التى لم تعالج حتى بالمخصبات تنتج محصولا جيداً من الشعير إذا حسن انتخاب بذوره كما تنتج مئات الأطنان من البرسيم من الفدان الواحد .

كما أنهم جلبوا إليها نوعا من الكاكتس أو (التين) الخالى من الشوك الذى يستعمل علفاً جيـــداً للحيوانات . كما جلبوا من تونس نوعا من القمح إسمه « قمح فلورنسه المبكر » Florence aurore wheat الذى يمتاز بالتبكير فى نضجه ومقاومته للآفات مع وفرة المحصول وهذا بلا شك مما يساعد على وفرة الحبوب الغذائية فى طرابلس كما أنهم يقومون بتجارب كثيرة على أنواع مختلفة من شجر السنط لاختيار أيها أصلح لتثبيت التربة ولعمل السياجات لكسر العواصف . وقد مدت حولها الشوارع الواسعة يقوم على جانبيها شجر الكافور eucaly pius المجلوبة من استراليا وهى بما لها من أغصان ميرومة تشبه الكرابيج ومن خشب حديدى تستطيع أن تصد الرياح الشرقية أو رياح الخماسين .

والمعامل فى سيدى المصرى كاملة الاستعداد مزودة بجميع ما يلزمها و بفضل حسن التصرف البديع نجت هذه المعامل فى مدة الحرب من الجيوش دائمة الحركة بجوارها وسلمت من النهب والتخريب .

وقد تهيأت لهذه المعامل الأدوات والموارد الممتازة للقيام بمهمتها سواء أكان من أجل

البحوث النظرية المحضة أم من أجل التطبيق العملى ، وزعم الايطاليون أنها أرقى المعامل من نوعها فى أفريقيا كلها . ونستطيع نحن أن نجزم أن صلاحيتها للبحوث أكبر بكثير مما تحتاج إليه طرابلس ولربما أكبر مما تحتاج إليه شمال أفريقيا كلها . ولقد أوعز إلى أن أوصى بجعل هذه المعامل وحدة دولية من النوع الذى تتطلبه اليونسكو لخدمة جميع المناطق الجافة أو الصحراوية . والواقع أنها بشكلها الحالى لا تعدو أن تكون مثل « فيل أبيض محبوس » ، ولم تستطع حكومة الادارة البريطانية المنتدبة أن تعمل شيئا أكثر من مجرد المحافظة عليها تحت رقابة جماعة قليلة من الموظفين الايطاليين يشرف عليهم قليل من الخبراء البريطانيين وأكثر اهتمام هؤلاء بالعمل التطبيقى وليس بالبحوث والتجارب النظرية ومع ذلك لاينكر أنها تقوم الآن بخدمات مشكورة لما يواجه الزراعة الحالية من مشكلات .

ومن أهم النواحى التى تعنى بها كلية سيدى المصرى ناحية تربية الحيوانات والاكثار منها . وقد غادرتها وأنا قوى الرجاء بأن العناية بسلالات الحيوانات تلعب دوراً خطيراً فى إصلاح الأحوال فى الصحارى .

ويقول الناس أحياناً « إن مهمة العالم النباتى هى أن يستنبت ورقتين حيث كان يستنبت من قبل ورقة واحدة » وقياساً على ذلك أقول « يحاول علماء الحيوان هنا أن ينتجوا حيوانين حيث لم يكن ينتج إلا حيوان واحد . » ومن المعلوم أن نباتات الصحارى ضئيلة ومبعثرة فى حين أن مواشى الصحراء الهزيلة تستطيع أن ترعى ما وسعها الامكان مما ترعاه الحيوانات الأسعد حظا منها فى أقاليم الخصب والنماء . ولو توفر للانسان مقادير أكثر من اللبن الأجود (مما هو متوفر الآن) ومقادير أكثر من اللحم الأجود ، ومقادير أكثر من العمل الأجود ، ومن الدواجن مقادير من البيض واللحم الأجود ، ومن الغنم مقادير أكثر من لحم الضأن الأجود المسمن بارتياد المراعى الجيدة القريبة ، لو توفرت هذه الحاجيات المختلفة لكان هذا هو السبيل الوحيد لرفع مستوى المعيشة فى الصحراء .

ولقد جلنا جولة حول مدينة طرابلس فى عربة من نوع الفياكر العتيق fiacre كان يقودها سائق من البربر خبيث المنظر جامد النظرات ولعلى أظلمه بالظن السيء أنه يستطيع أن يخطفنى و يفر بى إلى جوف الصحراء ، لولا أن حصانه عجز كل العجز عن أن يصعد بنا إليها . فإنه لم يعد أن يكون صورة مصغرة «لجواد» . ولعله كان فى سالف الزمن روزينانت Rosinante ذلك الجواد الذى امتطاه دون كويكسوت Don Quixote فى تجولاته الملتوية حوالى طواحين الهواء[1] . ثم قلت فى نفسى لعل روزينانت كان مهراً أسبانياً (ajennet) من سلالة مهر مغربى (abarb) ولعل المغربى أو « البربرى » بدوره جيء به من هذه البقعة من قارة أفريقيا ولعلها جميعاً من سلالة تلكم الجياد الليبية التى (قبل ظهور الجياد العربية بزمن بعيد) أمدت اليونان ومن بعدهم الرومان بالأربعة الجياد لعربة السباق ، والشاهد على ذلك ما رواه هيرودوتس Herodotus ذلك اليونانى الملقب « بأبى التاريخ » (٤٨٤ ق . م) حين وصف قبيلة الجرمنت Garamantes تلك القبيلة الحربية المتوطنة فى فزان Fezzan — فى جنوبى مدينة طرابلس فى مطاردتها لسكان الكهوف من الأثيوبيين فقال إنهم كانوا يركبون فى أثناء المطاردة العربات تجرها أربعة جياد فلما تخيلت ذلك كله وشاهدت ما آل إليه « روزينانت الهرم » يكدح فى شد عربتنا الصغيرة ، أسفت كل الأسف لسوء ما تحول اليه جده الأصيل . هذا هو التحول البئيس الذى آلت اليه جميع المهار المغربية .

ولكننى شاهدت فيما بعد بما يشبه المفاجآت المسرحية جيادا نبيلة فى جوف الصحراء . أن الجياد الأصيلة منحدرة من جياد السباق الانجليزية ، ومع ذلك إذا فاخر الانجليز بجيادهم المشهورة فلا بد أنهم يفهمون أو يجب أن يفهموا أن إصالة جيادهم

---

(١) يشير الى بطل رواية أسبانية من تأليف سرفانتس Cerv antes فى غرامه الجامح (١٥٤٧ ١٦١٦ م المعرب) .

معناها انحدارها من دماء جياد عربية ، وليذكروا أن جميع الجياد الفائزة فى سباق دربى وجميع جياد النبلاء والعظماء انحدرت من سلالات صحراوية وكلها تتصل بخط النسب المستقيم عن طريق الذكور أى الآباء والأجداد إلى : إبيرلى تيرك Beyerly Turk أو دارلى أربيان Darley Arabian أو جودولفين Godolphin . وجود ولفين الذى هو أكثر هـذه الأنساب شهرة وأصالة ينتمى إلى مهر عربى A barb من نوع الحصان الذى يجر عربتنا الصغيرة ، حقاً إنه كُشِفَ فى باريس سنة ١٧٢٨ يجر عربة مياه ، لذلك وجب علينا كلما أعجبنا بسرعة جواد سباق ورشاقته أن نذكر ماندين به من هذه الوجهة للصحراء .

وقد عرفنى مستر تيلر مراقب الزراعة فى حكومة طرابلس أنه قرر أن يرد هذا الدين بطريق الإعارة والتأجير «lease-lend» وطريقة ذلك هى أن يهجن أنواع هذا المهر الطاعن المشوه بدم جديد من سلالة انجليزية سليمة وقوية وجميلة .

فرجع إلى بريطانيا ليحقق خطته هذه بانتخاب ذكور متفقة مع شروطه ليلقح بها الأفراس المحلية بقصد استيلاد نتاج أصلح للركوب وللجر . فزار مقاطعات مختلفة من بريطانيا وفحص السلالات « المعتمدة » للاكثار فى أقاليم ويلز والديل وفل Wales, Dale & Fell وانتخب أيضاً بعض الجياد التى فازت بالجوائز وبعث بها إلى « سيدى المصرى » ولا شك أن نتاج هذه الأنواع السليمة القوية سوف يمهد لرد الدين الذى علينا للمهر العربى .

ولم تكن طريقة الإعارة والتأجير مقصورة على تحسين الأمهار ، فإن المواشى الأخرى والدواجن المحلية قوية ولكنها ليست من الأنواع التجارية ، ومع ذلك فلم تكن هناك فائدة مرجوة من جلب أنواع ممتازة من مزارع البلاد الغربية فإنها إذا جُلبت سوف تشبه غانية من غانيات مي فير Mayfair [1] نقلت من ردهة الكوكتل إلى البيئة العربية لكى يطلب منها أن تحيا حياة المرأة البدوية ، وأن

(١) حى من أحياء لندن «المعرب» .

تحمل مثلها على رأسها أحمال الحطب وتسير بها ٤٠ ميلا فى الصحراء ، لذلك كان الواجب أن كل سلالة تنقل إلى البلاد العربية يجب أن تكون صالحة لأن تتأقلم وتتشكل بحسب الظروف المحلية .

وهذا ما حـــدا بمستر جين إيتين لى ريش Mr. Jean Etienne le Riche من أهالى جنوب أفريقيا ، وهو الموظف فى الإدارة البريطانية هناك المختص بالاشراف على الثروة الحيوانية — أن يسافر إلى السودان وأن ينقل من هناك إلى بلاده عينات من البقر ذى السنام « Zebu » من السلالة المسماة كينانة «Kenana» ، هذا البقر الذى يسمونه أحياناً الثور البرهمى « Brahman bull » له سنام شحمى على كتفيه — وهو فى الأصل منقول من بلاد الهنـــد إلى السودان لـــكنه استطاع أن يتأقلم بيسر فى أفريقيا — هذا النوع نفسه له من المزايا ما يجعله صالحاً للصحراء الأفريقية فضـــلا عن كونه مفيداً ليستخدم فى الجر ويُحَسِّن من انتاج اللحم واللبن فى مواشى البلاد نفسها .

والقوم فى طرابلس يتطلبون فى المواشى توفر هذه المزايا الثلاثة مجتمعة ، ولـــكننى سمعت فيما بعد فى مصر وفى العراق آراء أخرى فيما يتطلبونه فى مواشى الصحارى .

وتمتاز الأغنام المغربية بأنها من سلالة جيدة ولون صوفها الأصفر هو الأصل فى أسطورة الجزَّة الذهبية « The Golden Fleece » ، وإنه لنوع صحراوى متـــين ذو ذيل عريض وسمين لا شك فى أنه مخلاة طبيعية يختزن الحيوان فيها الدهن الذى يستمد منه الغذاء الداخلى فى فصل المجاعة ، زد على ذلك أن من مزاياه أنه يحتمل الأيام العديدة دون أن يشرب المـاء فيستعيض عنه بما يتلقفه من الندى المتكثف على المراعى فى الساعات المبكرة من النهار أو من النبات الصحراوى نفسه حين يرعاه ، لأن نبات الصحراء يمتاز بأن أوراقه سميكة ذات عصارة تختزنها تحت غلافها الصفيق كأنه نسيج المشمع .

ولى ريش هذا Le Riche قبل أن يفد على شمال أفريقيا مع القوات البريطانية

المجلوبة من جنوبى أفريقيا الغربى فى أثناء الحرب العالمية ، وكان مزارعا متوطناً فى جنوبى أفريقيا الغربى يحوز قطعاناً من الغنم المسمى « كاراكول Karacoul » ذى الصوف الناعم وتسمى فروته « الحمل الفارسى » The Persian Lamb — وهذا النوع من الغنم كما يشير إليه اسمه من أصل أسيوى جىء به من مراعى وسط آسيا .

وقد فطن « لى ريش » إلى أنه إذا هَجّن الغنم الأفريقى بالغنم الأسيوى فسوف ينتج نوعاً من الغنم ذا « صوف ذهبى » ويكون هذا مورد ثروة لشمال أفريقيا .

وقبل أن أغادر الصحراء كان لا بد لى من التعارف الوثيق بالطيور والدواجن فيها ، ذلك لأن المعول عليه فى زاد المسافر فى أطراف الصحراء ليس الأطعمة المحفوظة فى العلب ، لكنه البيض والبيض فقط البيض الصغير فى حجم بيض الكروان ، والمعول عليه فى طعام « الكسكسى » ليس إلا لحم الأفراخ الهزيلة ، القادرة على نبش التربة الفقيرة والتقاط ماعسى أن تعثر عليه فيها مما يصلح غذاء لها . وفى طرابلس نوعان من الدجاج ، نوع ذو عرف كبير يسمونه « الدجاج الرومى » ونوع آخر هو صورة مصغرة من طير الصيد فى انجلترا أو الهند .

لذلك استطاع الخبراء فى سيدى المصرى أن يدخلوا تحسيناً على سلالات من دجاج الواحات الجنوبية بأن هجنوها مع النوع البريطانى الأسمر المسمى ليجهورن leghorn والذى فيه سلالة من دجاج الغابات الهندية والذى قديمت بصلة نسبية إلى دجاج الصحراء وبهذه التجارب تحسنت أنواع الدجاج من حيث كثرة المحصول وجودة البيض .

كما توجد فى سيدى المصرى حظائر واسعة لتربية الخنازير ، حيث تجرى على هذا الحيوان تجارب يراد بها الوصول إلى صناعة مربحة وهى صناعة البورك والبيكون (من لحم الخنزير) ، ولكن الأمل فى حث العرب على اتخاذ هذه الصناعة مهما ثبت أنها مربحة ، هو أمل ضائع . فإن المسلمين مثل اليهود لحم الخنزير محرم عليهم

طعامه أو التلوث به ، وعندى أنه فى الزمن الماضى كانت ثمت أسباب معقولة وصحيحة لتحريم أكل لحم الخنزير فإن هذا التحريم مثل غيره من المحظورات بمقتضى « قوانين الصحة العمومية » التى وردت فى الفصل الحادى عشر من سفر اللاويين من التوراة Chapter XI. of Levi ticus جميعها مؤسسة على قذارة الخنزير التى يعزى إليها الكثير من الأمراض التى تتفشى فى جو الصحراء وظروفها الأخرى[1] .

« حتى لو استطاع العلم الحديث أن يضمن سـلامة لحم الخنزير من أسباب الأمراض فلن يكون ذلك كافياً لنجاح تربيته بين المسلمين لأن أحكام الدين وقدسية التقاليد سوف تحول دون ذلك . »

لكن موضوع تربية الحيوان على العموم — له فى نظر العلماء الذين هم فى صراع دائم مع الصحراء والذين وقفوا أنفسهم بإخلاص وتفان على استخلاصها — يقررون أن الحيوانات التى تساعد على اتساع الصحارى هى بنفسها تستطيع المساعدة على استخلاصها . وإنها أيضاً الرباط الوثيق بين قبائل الرعاة الرحل و بين المزارعين سكان الحضر ، وإنه لرباط يشبه ذلك الذى كان بين « قابيل وهابيل » .

وثمت ظاهرة اخرى فى سيدى المصرى ، وهى أمل الإيطاليين ومحاولتهم الفاشلة فشلا تاماً فى أن يبتكروا آلة ميكانيكية تدار بقوة الشمس والآلة التى حاولوا اختراعها تتكون من موقد عادى يسخن بحرارة الفحم الحجرى مع جهاز شمسى خاص يحتوى على مادة كلوريد الايتيل Chlorifier containing ethyl-chloride ، أما كيفية تشغيله فهى تسليط أشعة الشمس على الأنابيب الزجاجية التى فى الجهاز والتى تحتوى على المادة الكيمائية فى شكل سائل . وهذه المادة من خصائصها أنها تصل إلى الغليان فى درجة ١٢° المئوية وتصير غازاً ، ينتقل هذا الغاز إلى اسطوانة تبريد ثم يعود فى شكل السائل مرة أخرى إلى غرفة الضغط لتستمر الدورة كما بدأت .

---

(١) هذه الأسباب لا زالت قائمة والقول بأن الوسائل العلمية الحديثة قضت عليها ظنى وليس شاملا لكل زمان ومكان — لذلك قضت به حكمه التحريم العام (المعرب) .

السيل يتدفق فى الوادى .
فيجف المجرى ويروى حوضه
أياما معدودات فى السنة
ثم يتبدد

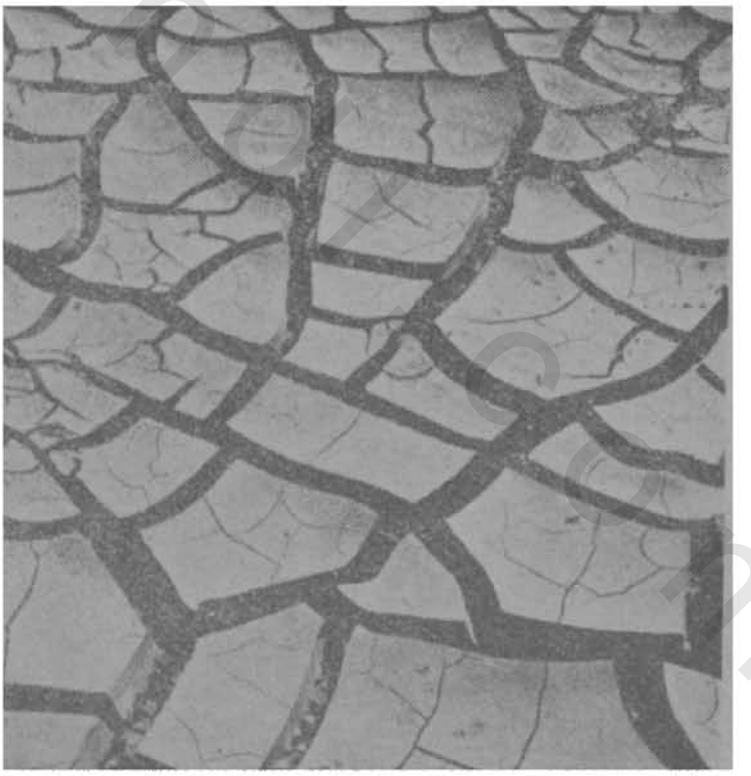

الغرين فى الصحراء : يتخلف
عن السيل غرين غنى بالتربة
الزراعية ، ثم يجف ويشقق
ويفتت وتذروه الرياح

من مناظر الصحراء : نساء البدو (وهن من دواب الحمل) يهربن بأحمال الحطب من وجه آلة التصوير التى يحملها الكفرة

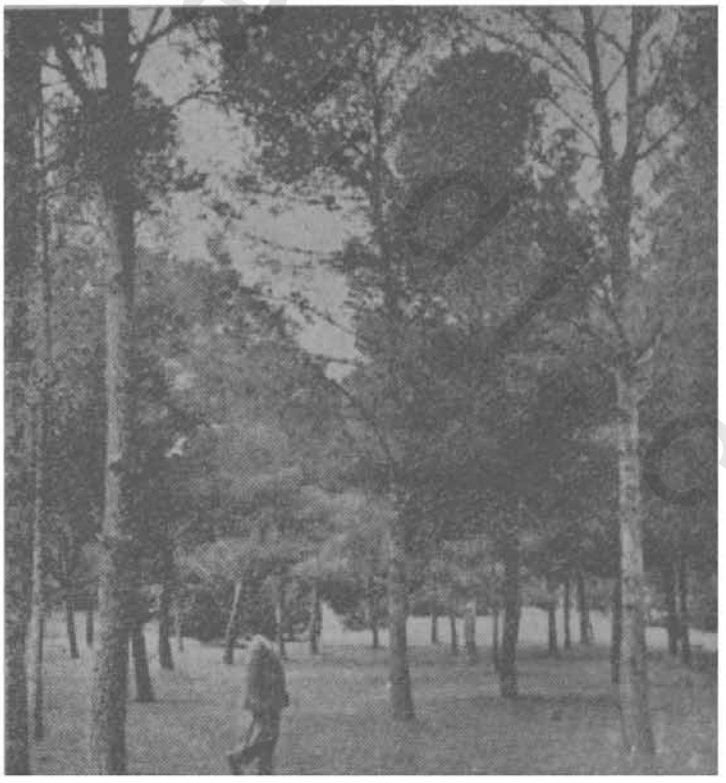

كيف يمكن أن تتحول الصحراء إلى حديقة نزهة (كاملة يتروض فيها انجليزى من بور كشير) كانت منذ ثلاثين سنة برية مقطوعة .

هذا الموقد الذى يسخن بالفحم يدار بواسطة زر أتوماتيكى لا يعمل إلا فى غياب أشعة الشمس أو ضعفها ، ولما كانت مدة تشغيل الجهاز الشمسى لا تتجاوز خمس ساعات فى اليوم ، كانت هذه الطريقة غير محققة للغرض .

المدن الثلاثة المكونة لمدينة طرابلس Tripolitania التى أسسها الفينيوقيون المهاجرون من مدينة صور Tyre حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م دخلت تحت حكم قرطاجة قبل سنة ٥٠٠ ق . م .

ولكن ماسيسينا Massissina ملك نوميديا Numidia المعادى لقرطاجة انتهز فرصة انشغالها بالحرب مع رومة وتغلب على المدن الثلاثة فى الفترة ما بين الحربين البونيتين الثانية والثالثة ، ولما دحرت رومة قرطاجة نهائياً وأزالتها من الوجود سنة ١٤٦ ق . م بقيت سابراطا Sabratha تحت حكم نوميديا بصفة أنها « مدينة محالفة لرومة » ثم ضمت فيما بعد إلى الإيالة الرومانية الأفريقية أولا على أنها «مدينة مستقلة» Mumicipality وأخيرا على أنها مستعمرة .

وقد بلغت سابراطا شأواً عظيما من السؤدد والرخاء فى القرن الثانى الميلادى ، كما تشهد بذلك الآثار الرائعة الباقية للآن من تلك المبانى الفخمة التى قامت فى تلك الحقبة من تاريخها . وقد راجت وقتئذ تجارتها بتصدير الزيتون وغيره من المحاصيل الأفريقية (سابراطة Oea معناها مخازن الحنطة) ، وقد سلبها الدهر ما جمعته من القرنين الثالث والرابع الميلاديين بسبب غزوات الفاندال Vandale برابرة أوروبا إلى أن عادت إلى حكم رومان بيزنطية على عهد جستينيان ذلك المشرع المشهور فعاد لها الإنتعاش نحو قرن من الزمان . وهو قرن تأسيس الكنائس المسيحية وأخيراً تسلمها العرب فى القرن السابع الميلادى ، ولم يكن العرب سكان مدن ، لذلك لم يبق من تلك المدائن إلا مدينة أو سابراطة لتكون قلعة ومركزاً للحاكم .

وتصدق هذه القصة على مدينة « لبدة الكبرى » مع قليل من الفارق وهو إن

« لبدة » نالت حظاً أوفر من المجد عندما نهض رجل من أبنائها وأحسن السيرة حتى نودى به « الامبراطور سبتيمبوس سيفيرس » Emperor Septimius Severus (بين سنى ١٩١ ، ٢١١ م) وهو الامبراطور الذى مات فى مدينة يورك York [1] وقد بلغ عددسكان لبدة فى أيام هذا الامبراطور ٨٠٫٠٠٠ نسمة وهوعدد يقرب من عدد سكان مدينة يورك فى وقتنا الحاضر .

وقد أعقب الفتح العربى غزو الرمال للساحل واستمر الغزو حتى طمر الآثار القديمة إلى أن كشفت أخيراً فى عهد موسوليني الذى أنفق أموالا باهظة فى التنقيب عنها ، ولعله كان يقصد الكشف عن أوضح مثال المدن الرومانية فى المستعمرات بل فى إيطاليا نفسها ، وليست هذه الآثار باقية على أصولها — لم تعبث بها يد — فقد اهتدى إلى مكانها رجال الآثار فى القرن السابع عشر وعلى أثر ذلك أرسل قنصل فرنسا إلى لويس السابع عشر عدة تماثيل ونحو ٦٠٠ عمود من عمد لبدة الرخامية وفيما بعد « استعار » جورج الرابع الأعمدة وشيد بها المبنى الأثرى المزيف ، القائم للان بجوار البحيرة فى فرجينيا ووتر Virginia Water .

وقد حدد الإيطاليون فى سبراطا مسرحها الفخم (there الذى يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٠ م) فأعادوه تقريباً إلى مظهره القديم فهو الآن أكبر مسرح فى أفريقيا يتسع لخمسة آلاف من المتفرجين ، ومن أبدع مميزاته النقش بطريقة الفرسكو على الجدران حول خشبة المسرح فقد دونوا فيه بالحفر الذى لا يمحى مميزات الملاهى والمسرحيات المختلفة من الدراما ، والكوميديا ، والباليه ، والحفلات الغنائية ، والفرق الموسيقية .

ويستطيع الإنسان أن يشهد السوق القديم بما فيه من حوانيت تتصدرها معارض السلع (البنوك) المبنية من الحجر الصلب كما يستطيع أن يزور المعابد الرومانية واليونانية والمصرية والكنائس المسيحية . وفى لبدة حمامات عامة ، وهى المركز الاجتماعى فى المدينة المعد للرجال وللنساء على السواء ، والعجيب أن هذه

(١) فى انجلترا (المعرب) .

الحمامات شادها الإمبراطور هادريان Emperor Hadrain الذى جمع بين النقيضين حمامات مختلطة فى لبدة وسوره المشهور الذى يفصل اسكتلندة عن انجلترا .

وفى داخل الحمامات كانت الردهة الرئيسية أو (المنتدى العام) تعلوها قبة كبيرة مشرفة على باقى المبنى ، فكان القوم يتقابلون ويتحادثون فى هذه الردهة مع الإفادة من الحمامات الباردة أو الفاترة أو الساخنة أوالحمامات التركية التى تتسم بارتفاع أرضيتها (مثل المصطبة) وبامتدادالقنوات فى داخل الجدران لتنقل الهواء الساخن من المواقد المبنية تحت الحمام .

وتدل هذه الحمامات العامة وغيرها من الحمامات فى عصور معينة على أن المدينة كانت مزودة بمورد مياه كاف لها . وتدل خزانات المياه وأحواض تجميع المطر فى كل بيت وفى كل مبنى على أن القوم ضبطوا ونظموا توزيع المياه بدقة فى داخل المدن ، ولكن الموارد الأصلية فى الجبل كانت تبعد عن المدنية نحو ٧٠ أو ١٠٠ ميل وتنقل إليها بواسطة قنوات . وقد أخبرنى أخيراً الأستاذ ج . كابيتو Professor Y. Caputo الأثرى الإيطالى القائم بإدارة الآثار والمحافظة عليها وتجديدها ، والذى ما زال يزاول وظيفته هذه فى عهد الإدارة البريطانية ، أنهم كشفوا أخيرا كشفاً غريباً .

ذلك أنه كان يوجد فى الجبل أدغال واسعة من شجر الزيتون ولقد توجهت لأشهد آثار معاصر الزيت هناك .

ولما كان الرومان القدماء يفهمون أن الزيت لايمتزج بالماء ، استخدموا طريقة بارعة لنقل الزيت بدون نفقات ذلك بصبهم الزيت على وجه المياه فى القنوات النازلة من الجبل إلى المدينة ، أما كيف كانوا يكشطون الزيت من الماء فهذا ما لم أقف عليه ، ولكنهم بلا ريب فعلوا ذلك بدون مشقة .

ولقد كانت الجولة فى الجبل محرجة وأحياناً خطيرة لأن سفح الجبل فوق البحر يكاد يكون رأسياً ! وصعودنا عليه بالسيارة كان يشبه ذبابة تتسلق لوح زجاج رأسى ،

لكن سرعان ما تبين لى أن هذا الخطر وهمى لأن الايطاليين مدوا الطريق الحربى الصلب المستوى فكان هذا منهم عملا هندسيا مجيداً حقاً ، لكثرة ما يحتوى من تعرجات قد يفصل الواحدة عن الأخرى فاصل أحد من الشعرة !

ويشهد الصاعد على الجبل وعلى مدى ارتفاعه شرفات وأحواض زرع بديعة شيدت بحجارة كبيرة وملئت بتربة خصبة مجلوبة من البربر أولئك القوم الذين هم على عكس العرب الرحل زراع ماهرون ناجحون ، وقد شاهدنا فى قمة الجبل قرية من قرى البربر حين كان اليوم يوم السوق فيها .

اكتظت ساحة السوق بحشد كبير من رجال البربر وجماعات من الأطفال ظهر بين جموعهم سمر الوجوه طفل يبلغ من العمر أربع سنوات تقريباً ذو شعر مجعد أحمر ووجه منقط راكباً حماراً يشق طريقه وحده ويتكلم خليطاً من الإيطالية والعربية وبالاستعلام عنه عرفت أنه ابن مأمور القرية ولم يسبق له قبل السبعة الأشهر الأخيرة أن غادر مدينة جلاسجو حتى قدم إلى هنامع والديه . وهو الطفل غير الأفريقى الوحيد فى منطقة امتدادها ١٠٠ ميل . قد استطاع فى هذه الفترة الوجيزة أن يتعلم بعض العبارات الإيطالية من البربر (الذين تعلموا شيئاً منها فى عهد الاحتلال الإيطالى لبلادهم) وكذلك بعض العبارات العربية ليكون ترجمان والدته فى المطبخ ولكى ينقل لوالده بعض ما يسمعه من لغة الشارع والسوق . وقد كان فى آخر مرة رأيته فيها قبل هذه الزيارة طفلا صغيراً يحمله رجل من البربر على ظهره ويصعد به الجبل .

ومنطقة الجبل غنية بكل الأسباب المهيئة لزراعة الزيتون والكروم وسكانها من البربر جد شغوفين للمعاونة فى تحقيق هذا الأمل وقد كانت فى زمن الحرب العالمية الثانية مركز تحركات فرقة الصحراء واسعة النطاق تلك الفرقة العجيبة التى امتازت بجرأة رجالها وقدرتهم على جوب الصحراء وتعقبهم للايطاليين والألمان يجمعون من أخبارهم وينظمون الحملات الفجائية عليهم مما قطع خطوط مواصلاتهم وحطم روحهم المعنوية . وقد دأب جماعة من جنود المظلات

البريطانيين الذين يتكلمون اللغة العربية على النزول بمظلاتهم فى هذه المنطقة و بفضل معاونة بعض الأصدقاء من العرب حصلوا على الأزياء العربية وسمحوا لهم بالإقامة فى مضارب خيامهم . وفى زيارتنا إلى سكان الكهوف المختبئين فى أعماق الجبل استقبلنا أحد شيوخهم واضعاً فوق زيه التقليدى وهو الغندورة شارة وسام الإمبراطورية البريطانية الذى منحه اعترافا بما قدم من المساعدات لجنود المظلات .

ولم تكن زيارتنا للجبل لمجرد التعارف والمجاملة بل قصدنا بها الإطلاع على الكهوف التى سكنها اليهود منذ ٨٠٠ سنة على الأقل واختبأوا فى سراديب جبالها وحتى كنيستهم كان فى أحد هذه الكهوف وقد كانوا على الدوام فى جوار كريم ومعاملة حسنة مع المسلمين ومع ذلك وجدنا هذه الكهوف أقفرت منهم لأن بعثة من إسرائيل كانت سبقت زيارتنا وأفهمتهم بأنهم إحدى القبائل المشتتة التى يجب أن تعود إلى فلسطين ، وقد تم هذا الخروج العصرى Exodus [1] قبل زيارتنا بأسابيع قليلة والذى بمقتضاه ارتحل اليهود سكان الكهوف بقضهم وقضيضهم إلى الأراضى المقدسة.

وقد اعتاد العرب من القدم أن يسكنوا فى الأكواخ القريبة من كهوف اليهود فلما رحل هؤلاء من كهوفهم تركت خرابا يبابا لا يسكنها ديار اللهم إلا اتخاذ بعضها زرابا واصطبلات للدواب . والآن ولما يمض على ارتحال اليهود إلا أشهر قليلة رأينا بعض هذه الكهوف التى سكنها اليهود القرون العديدة (واحدمنها على وجه التحديد منذ ٧٥٠ سنة) رأيناها تنهار مما يدل على العناية العظيمة التى بذلها اليهود فى صيانتها والإبقاء عليها سليمة مدة إقامتهم فيها . ولم يلبث العرب حتى تنبهوا إلى مزايا سكنى الكهوف ولذلك شرعوا فعلا يحفرون كهوفا جديدة و يقوم بحفرها لهم عمال من قبيلة معينة نازلة بإقليم فزان والتى يفهم من رواية هيرودوتس أنهم من الزنوج سكان الكهوف نزلوا بهذا المكان منذ ٢٥٠٠ سنة ، وجىء بهم من وطنهم الذى يبعد

---

(١) يشير إلى خروج بنى اسرائيل من مصر «المعرب» .

مئات الأميال ليكونوا « فرقة عمال » أو بناة الكهوف ويستطيع كل إنسان أن يحصل على كهف مريح مقابل ٤٠ جنيها .

ومن الخطأ الفاحش أن يظن إنسان أن هذه الكهوف مساكن بدائية سكنها المتوحشون القدماء واتخذها الإنسان الحديث لنفسه ، لأنها فى الواقع مساكن متحضرة بدرجه عالية ، ولقد شيد أحد الحكام الإيطاليين لنفسه كهفاً خاصاً به — لا ليكون مخبأ من أخطار الحرب بل ليكون مسكناً صيفياً جميلا فقد تميزت الكهوف بالطقس الرطب صيفاً الدافىء شتاءا . لذلك هى من جميع الوجوه مساكن مستحسنة فى الصحراء .

وقد انتشرت فى الجبل و إلى مسافة كبيرة فى الصحراء نظم الرى الرومانية المختلفة على الجداول والغدران فمن خزانات لحجز المياه وأخرى للتحويل من جهة إلى جهة وغيرها للخزن تحت الأرض أو فوق التلال أو فى الآبار . ويقدرون أن هناك الآلاف من الأبار والأحواض الرومانية فى طرابلس ، ولقد كشفت فيها مئتان ونظفت منها مائة بئر تستخدم الآن كما كانت تستخدم منذ ألفين من السنين . وقد عدا الزمن على تلك النظم المختلفة إذ ردمتها الرمال ، وقد صادفنا — واحدة منها على الأقل — كدست فيها رفات بشرية لعلها بقايا قبيلة هلكت كلها فى حركة ارهابية فظيعة منذ عدة قرون ، والإدارة البريطانية عاملة على تجديد فوهات الآبار المهجورة وتركيب أدوات رفع الماء عليها ، وبعض القبائل تفضل أن تعهد إلى نسائها عملية رفع المياه من الآبار وبعضها يفضل أن يشد الجمال أو الحمير فى أدوات الرفع ، وقد شيدت بجوار الآبار الجديدة أحواض من الأسمنت المسلح تفرغ فيها الدلاء الملئى بالمياه لتسقى منها قطعان الغنم وجماعات الإبل بدلا من الاستقاء من أيدى الناس .

ولو ركبت فوق هذه الآبار مضخات رافعة ، لأصبحت مراكز لواحات خصبة صغيرة وليست مجرد مسقى للانسان والحيوان .

ومن أجل الخدمات التى يجب أن تسدى إلى بلاد طرابلس ، إعداد فرق من الأثريين والجيولوجيين ليفحصوا عن الآبار وغيرها من أجهزه تدبير المياه القديمة ،

لأن الكشف عن هذه الآثار لن يكون مجرد بعث للتاريخ القديم بل سوف يكون خلقا لتاريخ جديد وهو إحياء قوم من المعاصرين لنا .

و بعد أن نزلنا من الجبل واصلنا السير شرقاً على ساحل البحر ، وهو الطريق الذى سلكه الجيش الثامن البريطانى فى تعقبه قوة روميل الفارة أمامه .

ولشد ما كانت المطاردة سريعة حتى أنه بالرغم من كثرة الألغام المبثوثة وغيرها من المتفجرات الخداعة (فى صور الأدوات المختلفة) ، لم تحصل موقعة جدية إلا فى نقطة (حمس) «Homs» التى هى المقابل الشرقى الحديث لمدينة « لبدة الكبرى » فعندها قامت مؤخرة الجيش الألمانى بحركة خلفية ضد الفرقة الحادية والخمسين التى هى من جنود المرتفعات الوسطى فى بريطانيا ، وقد أبلت بلاء مريراً للدفاع عن إحدى القلاع التركية المرتفعة التى أطلقوا عليها للدعابة «قلعة أيدنبرج» لما وقع فى نفوسهم من الشبه بين هيكلها العام والقمة القائمة عليها ، و بين شبيهتها فى بلادهم .

وقد لفت نظرى مسيو لى ريش فى أثناء رحلتنا فى الصحراء إلى خاصية من خواص الصحراء لم أتنبه إليها من قبل تلك هى أنه كلما استطاع شجر أو عشب أن يثبت كثيبا من الرمل ويحول دون أن تسفيه الرياح ، نبتت الأعشاب فى سفح الكثيب المواجه للرياح ، وهذا دليل قوى على الخصوبة العجيبة لتربة الصحراء وهى الصفة التى قلما اعترفنا بها ، وهى التربة التى حملتها الرياح فى صورة غبار ثائر من أقاصى الصحارى الجنوبية .

ولقد اختلط التراب الخصيب مع الرمال الخشنة فى مراحل هبوب الرياح الجنوبية حتى وصلت إلى الجبل واصطدمت برياح البحر الأبيض المتوسط فقامت هذه الرياح بعملية تصفية التراب الناعم وأرسته هنا فى سفح الجبل والقوم يسمون هذا التراب المخصب « طمياً أو غريناً » و إنه يتكون من حبيبات فى منتهى الدقة ، حتى أن الإنسان ليحار كيف يستطيع هذا الطمى أن يحمل معه مزاياه المخصبة الأصلية ، ولكن الحاصل هو ما يشهد به العيان من تربة نقلتها الرياح ونقلت معها أيضاً البذور

وهذا هو سر نباتات الصحراء . وعند ما وصلنا إلى ميناء سِرْت Sirte كان المفهوم أن رفاق يسلمونني رسمياً لرفاق غيرهم تابعين لحكومة برقة ، لكن وسائل الانتقال لم تكن وصلت بعد من بنى غازى فما كان يسعنى إلا الانتظار هنا .

وقد أسكننى المأمور العربى فى استراحة صحراوية صغيرة ، وسيلة المخابرة الوحيدة فيها كانت بالاتصال اللاسلكى مرة واحدة فى الساعة الثامنة من صباح كل يوم ، والرد عليها يصل فى الساعة الثامنة من صباح الغد . واحتوت الاستراحة على حجرتين فى بيت على ربوة bungalow جهزوه بأسرة من نوع أسرة المعسكرات ويقدم الطعام فيه على مصطبة من الحجر كانت تطل فى وقت ما على المطار الإيطالى الكبير ولكنها الآن عادت إلى الصحراء .

ولقد تعلمت فى هذا التوقف الاضطرارى شيئاً من الاستسلام للمقادير الذى يخضع له المسافر فى الصحراء فالزمن ثابت لا يريد أن يتحرك ، ولا قيمة مطلقا للتدبيرات المرسومة من قبل فليست هناك ارتباطات بمواعيد ، ولا مراسلات برقية ولا العناوين الصحفية الخطيرة ذات القيمة ، كل هذه الأمور تصبح خيالات فى الصحراء . والأمر الحقيقى الوحيد هو جمال الصحراء بألوانها المتعددة الفنية . وقد ظهر لى هذا الجمال فى اليوم الأول فى حادثة لن أنساها ، فقد فوجئت بجلبة الخيل قريبة منى وبثلة من البدو يحيطون بالاستراحة ، بأزيائهم الفضفاضة وعلى رءوسهم الكوفية والعقال ، لم أدر من أين جاءوا إلى حيث كنت نازلا ، وأول هاجس اضطرب فى نفسى (على نحو ما تذكرته من حوادث الصحارى) هو أن هؤلاء البدو جاءوا ليختطفونى رهينة حتى يأخذوا منى الفدية . ولا شك أننى كنت فى هذا الهاجس معظما لشأن نفسى عندهم ، لأن الأمر لم يعد أنه مظاهرة استقبال لزعيمين وليس له أية علاقة بى . فإن زعيما ليبيا اسمه بشير سعداوى بك كان عائداً من ليك سكس Lace Suecess [1] حيث دافع عن استقلال ليبيا كان يصحبه من بنى غازى مفتى

---

(١) مقر هيئة الأمم المتحدة فى أمريكا (المعرب) .

طرابلس الأكبر ، ولما كانت الاستراحة هى المبنى الوحيد الذى يشبه الفندق فى هذه المنطقة ، فكان لا بد أن ينزلوا فيها معى فى هذه الليلة . وقد انتشرت أنباء قدومهم فى أرجاء الصحراء بسرعة البرق ، فى حين أننى هنا بالرغم من استعانتى بأحدث وسائل المخابرات لم أتلق جوابا انتظرته منذ ٤٨ ساعة . لكن الخبر ينتشر بينهم من شخص إلى شخص وسرعان ما يصل إلى أبعد مضارب خيامهم . فاجتمعوا وشكلوا حرسا من الخيالة فى خارج سرتا ، وقدموا يحفون بزعيمهم إلى الفندق . فلما وصلوا أقاموا هذه المظاهرة ومضت فيها جيادهم المطهمة بسروجها المزركشة ولجمها المفضضة فآنا تخب فى جنبات الميدان وآنا تقف على ساقيها الخلفيتين إلى غير ذلك من حركاتها الرشيقة .

أما الشيوخ فلبسوا — كل منهم بحسب منزلته ويساره — أجمل أزيائهم البيضاء وربطوا الكوفيات بالعقالات المذهبة أو المفضضة ثم أخذوا ينشدون أناشيدهم الحماسية ويهتفون بعدم مبالاتهم بالموت ، ويؤكدون ذلك بتلويحهم بالسيوف والرماح وبالاختصار لم ينقص هذه المظاهرة لتكون حربا بمعنى الكلمة إلا إطلاق البنادق .

وكان من أثر هذه المظاهرة أن هاجت الإبل وعلا رغاؤها ، ولم ترد الحمير أن تكون أقل مشاركة لها فارتفع نهيقها ، حتى النساء المحجوبات — لا أدرى فى أى مكان — بدأن يزغردن ، وبالاختصار صار كل شىء وكل إنسان متحمساً وهائجاً .

وها هم أولاء فجأة يكفون عن التظاهر ، ويهمزون جيادهم — بأمر أحد شيوخهم — فتندفع المئات منها فى سباق حماسى فى عرض الصحراء . فقد تقرر فجأة القيام بهذا السباق فى هذا الميدان الذى كان على عهد قريب مهبط ومصعد الطائرات والواقع إنه لم يكن سباقا بل كان هجمة عنيفة جداً ، فدفعت إليها الجياد وقد غمزتها أسنة المهاميز الشائكة الفظيعة .

وأخيراً انتظمت الجموع الصاخبة حول هدف الفائزين فى السبق ، وعادت الجياد تخب خبا هادئا ونظموا صفوفهم حول فتية متحمسين تزيوا بالملابس العصرية الجميلة لابسين الطرابيش فوق رءوسهم ، رافعين عقيرتهم بالهتاف للفرسان ، و بالنداء نداء منظما جماعيا كأنهم جوقة موسيقية متساندة صائحين « ليبيا ، ليبيا !! » .

وقضت تقاليد العرب التى تلقوها عن نبيهم (عليه الصلاة والسلام) أن يقوم المفتى الأكبر وسعداوى بك بدور المضيف لى فى هذه الليلة حيث أننى نزيل وطنهم ، و بينما نحن نهاجم الكسكسى العظيم الذى عانت منه صديريتى كما عانت منه أدبياتى أخذ الزعيم السياسى والزعيم الدينى يشرحان لى الروافع المائية وعلم رى الأراضى .

وفى الوقت نفسه تحركت ثلاث سيارات من بنى غازى لتدركنى فى سرته . ولكنها تحطمت فى الطريق الوعر ، فما كان منى إلا أننى تعلقت بعربة كانت راجعة من طرابلس فى اليوم السادس .